مجموعة قصصية



ياسر أبو الحسب

فانتازيا للنشر والتوزيع
FANTASIA FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTION

آلة الوعي المُطلق

ياسر أبو الحسب

@yasserabuelhassab

تصميم الغلاف والإخراج الفني:
سرور مراد

Book Design:
Sarwar Murad

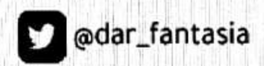
الطبعة الأولى

أكتوبر ٢٠٢٣

ISBN: 978-9921-737-89-9



darfantasia@hotmail.com



@dar_fantasia

@DarFantasiakw

مرارة ڤوياجر

انبثق إلى الوعي، ولم يرَ شيئًا إلّا الظلام. يريد أن يلتفّ برأسه، لكن لا رأس له. في الحقيقة، لا يملك أيّ عضو.

اعتادَ أن يكون شيئًا ما، «إنسانًا»، هكذا يتذكّر.

بدأ يرى على السواد نقاطًا بيضاء، يمتلك عينين إذن، أو ربما ما يراه وهم حسي، يتدفق إلى وعيه.

«إنّها نجوم! يُطلقون عليها نجومًا»، تنتشر في كل مكان أمامه، «لماذا لا أرى شيئًا سوى النّجوم، وأين أنا؟».

لمعت إحدى النجمات أكثر من أخواتها، وكأنّها تدعوه إلى أن ينظر إليها أو أن يأتيها، فنظر إليها وبدأ يُنقب بين أنقاض السواد الذي يملأ وعيه.

آخر ما يتذكّره وجوه تنظر إليه من علٍ وهو مُلقى على الطريق، عقبَ حادث بسيارته في بدايات عام ٢٠٧٧، ثم ظلام لم يَعُد بعدَه إلى الوعي، «أميتٌ أنا الآن؟ هل الآخرةُ فضاء ونجوم؟ أم أن آخرتنا تختلف من شخص إلى آخر؛ كُنتُ عالمًا، نعم! درستُ الكثير عن هذه النجوم ودرّستُه، ولهذا آخرتي نجوم»، شيء شاعري بدرجة أكبر من أن يتخيّلها.

ڤوياجر-٣، آخر مشروع عملَ عليه، حتى إنّه لم يُكمله. لقد وقع الحادث في بداية العام، وخُطط لانطلاق المسبار في نصف العام الثاني، ملأه الفضول في تلك اللحظات كي يعرف ماذا حدثَ بشأنه، هل انطلقت الرحلة أم لا؟

شارَك أيضًا في تصميم اللوحة الذهبية الفونوغرافية التي أُطلقت على متن المسبار، واختار بعض الأصوات التي سُجلت على الأسطوانة تعريفًا بالحضارة الأرضية.

وجدَ في ذكرياته مرارة تغشى ڤوياجر-٣، حدثٌ لا تطوله يد ذاكرته بخصوص الرحلة لكنّه غير مُريح، كأن تستيقظ من نومك في مزاج سيئ، فلا تعرف لماذا هو سيئ، إلى أن تتذكر حدثًا بالأمس ظل مُختفيًا إلى أن قَابلك لحظة الاستيقاظ. الفارق هنا أنه لا يستطيع تذكّره مهما حاول.

عادَ إلى النّجم الذي يراه أمامه، أسطَع نجم في السواد، تُرى أي نجم هذا؟ هو ليس الشمس يقينًا، ربما لونه المائل إلى الزرقة قد يُعطي إشارة ما.

لو امتلكَ قلبًا في تلك اللحظات لانفجر رَوعًا عندما كُشف عن ذاكرته غطاؤها، وتذكّر الاقتراح

الذي اقترحه ورفضوه، أن يضعوا مخًا واعيًا على متن ڤوياجر-٣ بجانب الأسطوانة الذهبية، مخًا متصلًا بآلية للإبصار.

«هل أنا المخ الواعي الذي ضحى به الأوغاد؟!»، أرادَ أن يقولها صارخًا، لكن أنَّى له ذلك؟

عادَ وفكّر: «إنّها جناية يدي».

«لكني... لكني اقترحت أن يظل المخ غير واعٍ إلى أن تلتقطه حضارة ما، وإلا فيظل في سباته إلى الأبد».

«فأين الحضارة التي انبثقت إلى الوعي كي أقابلها؟ أم إنّ المستشعرات عطبت كما خشوا، فاستيقظ المخ من دون وجود حضارة؟»».

عادَ ونظر إلى النجم أمامه، الشعرى اليمانيّة، لا بد أنّه ذلك النجم المائل إلى الزرقة أمامه، لكن «أين الشمس؟»، تذكّر الآلية التي اقترحها من ضمن ما اقترح، التي تسمح له بمسح السماء، فبادرَ بالالتفاف بعينيه التي لا يدري من أي شيء تتكون.

وجدَ الشمس، ووجد معها المزيد من الرعب؛ فالشمس لم تعد ألمع نجوم السماء، بل الشِّعرى. إذن، مرّ أكثر من اثنين وخمسين ألف سنة منذ أن أُطلقت ڤوياجر-٣.

إنّه حي، أو مخُّه حي، في رحلة سرمدية حقيقية، خلود شنيع.

لكن ستنتهي البطاريات ويعود إلى العدم الذي جاء منه.

ألقت عليه ذاكرتُه المرهَقة حجرًا آخر دهش أفكاره، إن خلايا الطاقة التي يستخدمونها لإمداد المخ بالطاقة لم تبدأ عملها إلا عند استيقاظه.

خلايا كَربون-١٤ ستظل تمدُّه بالطاقة حتى ٢٨٠٠٠ سنة، في المستقبل!

مجاعة الكتب

الأول

سيطرَ سكون الليل على البلدة الحزينة، ولكن فجرها أوشك أن يبزغ، وما هي إلا ساعة إلى أن تبعث الشمسُ في طرقاتها الحياة. ووسط الصمت سارَ الصغير في تؤدة، يحاول تمضية الوقت قبل أن يفتح متجر الكتب بابه العتيق.

وضْعُ البلدة مؤلم حقًا، لا كتب جديدة، كل كتب البلدة قرأها كلُّ شخص من سكّانها الخمسمائة، ومتجر الكتب خاوٍ لم تأته أي كتب لشهور.

وحقٌّ لكم أن تعرفوا حكاية البلدة الحزينة، قبل تلك الأيام العصيبة التي سمّاها المؤرخون بعد ذلك «مجاعة الكتب».

هناك في البلدة تُشترى الكتب بالحيَوات. تذهب إلى المتجر، تأخذ كتابًا وتدفع عددًا من الأيام يعتمد على جودة الكتاب. منذ عشرة أعوام خلت، اشترى أحدهم نسخة أصلية من كتاب نيوتن «الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية»، ودفعَ خمسة آلاف يوم، فلمسَ الكتاب ثم مات.

لا أحد يعلم ما الذي فكَّر به الرجل عندما فعلَ ذلك. الحياة في ذاتها لا قيمة لها عندهم، هذهِ نقطة نفهمها، ولكن هناك قيمة تكتسبها الحياة من الكتب؛ حياة أطول تعني قراءة أكبر عدد من الكتب. ربما كان متعجلًا لسبب ما، لكن عَجلته أتت عليه، فلم يحصل من الكتاب إلا على لمسة، أو ربما أراد اللمسة فحصل على ما أراد.

في مثل هذه الحالات النادرة، عندما يريدون شراء كتاب قيّم، يدفع أكثر من شخص عددًا معينًا من الأيام ويشترون الكتاب، فيصبح ملكية مشتركة لهم، كما فعلَ ثلاثة أشقاء وأربعة من أصدقائهم عندما اشتروا نسخة من الطبعة الأولى لكتاب «أصل الأنواع» لـ «تشارلز داروِن». يتعاقدون كتابيًا على أيّام امتلاك الكتاب خلال الأسبوع والشهر أو السنة –بحسب رؤيتهم- وتعتمد نسبة أيام الامتلاك خلال الفترة المذكورة على نسبة الأيام المدفوعة من أعمار كل واحد من المشتركين.

الثاني

بدأت الكارثة عندما أعلنَ صاحب المتجر أن متجره قد سُرق.

أعلنها هكذا، بسهولة، عندما جاء أحدهم يسأل عن كتاب فردّ البائع: لا كتب اليوم ولا غداً ولا بعد غد، فقد سُرق المتجر.

نعم، آلاف من الكتب كانت ستُباع لم يعد لها وجود بين ليلة وضحاها.

جاء يوم القيامة الذي لم يحسب له أهل البلدة حسابًا، لم يظنّوا أن الأمر سيقع بهذه البساطة من دون مقدمات. حدث جلل كهذا من دون علامات تسبقه؟ لا عواصف، لا أعاصير أو زلازل؟ كيف يستقيم هذا؟

وصاحب المتجر رجل غريب، لا يعرف أحد أصلًا ما سيفعله بكل السنين التي يجمعها مقابل الكتب المُباعة، حتى إنّ حياته طالت كثيرًا بفعل تجارته في الكتب.

ولا يعرف أحد من أين يحصل على الكتب كذلك، ولكن تُتداول بعض القصص حول ذلك.

يقولون إنّ عُمر الرجل تخطّى الألف عام، أي عاش عندما حوى العالم ملايين الناس، وعمل تاجرًا للكتب حينها.

لم يصلهم شيءٌ عن خبر الكارثة التي أودت بحياة غالب البشر إلا أقلّ القليل، حتى الكتب التي هي سجلّات الدنيا وذاكرتها لم تقل أكثر مما يتداوله الناس. وكأنّ التاريخ كتابٌ أنيقٌ تقرأ ما به منذ بداية الإنسان حتى ما قبل الكارثة، ثم ورقة مفقودة، لكن امتدادها موجود يدلك على ورقة كانت هنا، ثم بعد ذلك تتوالى باقي الصفحات بتسلسلها السليم.

لكن إن لَزِم ذكرُ شيء عن الكارثة، سنقول إن البشر هم منشأ تلك الطامّة، فعادت جريرتهم وبالًا عليهم، سلاح في حرب من حروب البشر أودى بحياة المليارات.

وعندما يتجاوز كتاب التاريخ تلك الفترة المبهمة، وتبدأ سطور الصفحات في الوضوح سنجد الطفرة التي تسببت بها الكارثة. كلّ من عاش من البشر بعد أن استقر الوضع بعد الكارثة –وكانوا مائتي فرد- تطوّرت لديهم على مدى شهور حالة لم تُعرف من قبل من حب الكتب والتعلّق بها حتى وصلت إلى ذروتها، وتناقلتها الأجيال، إلا واحدًا لم تُصبه الطفرة، هو صاحب متجر الكتب، تبدو مفارقة؟ يقول حكماء القرية إنّ وجوده وسط الكتب وقت حدوث الطفرة منعه من امتلاكها.

استغلَّ بائع الكتب ذلك وبدأ يبيع لهم الكتب مقابل أيام من أعمارهم. وفي تفصيل ذلك قد تُكتب مجلدات، لكننا سنقفز على ذكر تلك التفاصيل حتى لا يطول انغماسنا في التاريخ على حساب ما نودُّ ذكره فعلًا.

الثالث

فكّر الصبي وهو ينظر إلى الشمس الناعسة أن هذا الرجل ربما ملّ الحياة، فتخلص من كل هذه الكتب حتى لا يجمع مزيدًا من الأيّام. لكن لو صحّ هذا، فليترك لهم المتجر بكتبه، ويجلس في بيته مستمتعًا بأيّامه الطوال من دون أن يضطر إلى أن يبيع الكتب ويجمع المزيد من الأيّام.

لكن ستبقى معضلة، مَن سيأتي بالكتب الجديدة؟ هو الوحيد الذي يعرف السبيل إلى ذلك، ولن يبوح بسرّه بتلك السهولة. وإذا باحَ لهم بسره، مَن مِن أهل البلدة سيجرؤ على تجاوز حدودها ليأتي بالكتب، وهم الذين لم يفعلوا ذلك منذ مئات السنين.

وصلَ الصبي إلى المتجر الذي فُتح بابه توًا، فوجد صاحبه يجلس وحده يتأمل الشارع شبه الخالي في لا مبالاة تنم عن عدم اكتراثه بالمصيبة التي حلّت بالبلدة وأهلها.

- هل من كتب جديدة؟

- لا يا صغير، لم نعثر على السارق بعد.

- لو أردت المزيد من الأيام، سأضاعف لك عددها لكل كتاب.

ابتسمَ صاحب المتجر ابتسامة إشفاق، وردّ:

- لستُ أول من يعرض ذلك، وفي كل الأحوال عندي من الأيام ما يكفي، ولا أطلب المزيد.

قال الصغير في نفاذ صبر:

- لماذا أنت الوحيد الذي لا يحتاج الكتب؟

- يبدو أنّ اللعنة لم تُصبني، لعنة القراءة.

وأردفَ بعد صمت ثانيتين:

- أنتم مُخدرون، تدفعون من أعماركم كي تقرؤوا كتابًا جديدًا، أعرف بلادًا وُجدت على سطح هذه الأرض من قرون، لو قيلَ لأحد من ساكنيها إنّ هناك أناسًا يموتون –حرفيًا- من أجل القراءة، لأقسم على قتلكم جميعًا بيده.

- حسبك يا جدي، قرأتُ عن أقوام ربما قتلوك أيضًا إن قلت إن الشمس ليست إلهًا، وقرأتُ عن أقوام ربما قتلوك إن عرفوا أنك لا تقدّس الأشجار. فلئن عرفتُ أقوامًا –وإن كثروا- لا يقرؤون، لا يعطيك هذا حق تسفيه من يقرأ.

أكملَ الصبي بعد أن هدأ:

- ثم أي عمر هذا – وإن قصُر- يمكن أن تقضيه من دون الكتب؟!

صمتَ صاحب المتجر يأسًا من مناقشة الصبي، ثم ردَّ بهدوء:

- ها أنتم بلا كتب، تعاملوا مع حقيقة أيام طويلة بلا قراءة.

- أحسب أن هذه الحقيقة الوحيدة التي لن نستطيع أن نتعامل معها.

غادرَ المتجر، فقد أضحى المكان وكرًا للكآبة، بعد أن كان موطن سعادة.

ارتفعت الشمس وانتشر الناس في طرقات البلدة، فعَلَت الأصوات بالنقاش، وبين كل الكلمات، تجلت كلمة «كتاب»، كما تتجلَّى شجرة خضراء وسط صحراء شاسعة.

فكَّر الولد في أثناء سيره: «هل هناك أقوام لا يقرؤون فعلًا؟» هو يسمع ويقرأ عن ذلك منذ صغره، يسمع حكايات عن بلاد لم يقرأ من شعوبها إلا القليل، ولكن أبى عقله التصديق.

وصلَ منزله، دخل غرفته وتناول آخر كتاب لم يقرأه، وفتحه على آخر صفحة لم يقرأها، كان قد ادَّخرها ليوم كهذا، بعد أن علم بسرقة الكتب من المتجر.

بدأ القراءة، وأخذ يكرر كل جملة حتى ينتهي من الصفحة في أطول وقت ممكن.

وفكَّر أنه لم يُقدِّر تلك النعمة التي غمرته الأيام فيها من قبل، حينما كان يقرأ كتابًا جديدًا كل يوم. ومع كل حرف، يتمنى أن يُعثر على السارق.. سارق الحروف الهارب.

الرابع

انتهت الصفحة وانتهى الكتاب، ولم يعد هناك قراءة.. لم يعد هناك قراءة.

إنه حقيقي إذن، أن تعيش بلا قراءة لهو أمر حقيقي ومحتمل الحدوث. لآخر لحظة ظنّ أن المعجزة ستحدث، ستقع الأحداث وتتسلسل بصورة ما، فلا يأتي هذا اليوم.

لكن اليوم أتى، وجاء معه بخواء لا يُصدق.

والآن، انتشرت حالة الخواء في البلدة، فصار خواءً جَمعيًا، قوم بلا أرواح، تسيّرهم ردود الأفعال البيولوجية وينخر في عظم همّتهم سوس الظلام.

أُغلق المتجر نهائيًا، وشيئًا فشيئًا لم يعد أحد يذهب إلى صاحب المتجر، كأنما قد استسلموا لقدرهم، لأيام طويلة مرهقة لا يقرؤون فيها شيئًا جديدًا.

استسلموا جميعًا عدا واحد، صبي صغير عمره تسع سنوات، نعم هو صبيُّنا، وقفَ في تلك اللحظات مختبئًا خلف منزل بائع الكتب.

أقمرَ الليل، فأمدّه ضوء القمر بتفاؤل من نوع ما، على الرغم من أنه لم يملك أي خطة، بل أتى إلى هنا كل يوم لأربعة أيام خلت، يحاول استطلاع كلمة هنا أو تصرف هناك لصاحب المتجرَ في منزله على طرف البلدة الشرقي، ربما توصّل إلى أي معلومة قد تساعده على معرفة السارق.

صاحب المتجر هو المجني عليه (هكذا يبدو على الأقل)، لكن الصبي شعرَ تجاهه بشعور غريب، فهو يكره الكتب، ويكره أهل البلدة، وما كان يبيع لهم الكتب إلا لمعرفته حاجتهم الماسة إليها. وهي الحاجة التي يمكن أن تحوّلهم إلى وحوش ضارية لو علموا أنه يملك كتبًا ولا يريد بيعها، أما أن يقول إنّه قد سُرق، فهذا يحقق له أمنيته، يتوقف عن البيع ولا يستطيع أحد من أهل البلدة لومه.

هكذا فكّر الصبي عندما تخفّى خلف المنزل، يتعلق بصره بالقمر المضيء.

أتى من الداخل صوت غير مألوف قطع عليه أفكاره:

- لا أعتقد أنه قد تبقّى لهم أكثر من ستة أيام.

هذا ما وصل الصبي واضحًا، والباقي كلمات خافتة لم يتبيَّن منها شيئًا مفيدًا، واختفى الصوت تمامًا، يبدو أن المتحدّثين قد دخلا غرفة أخرى من غرف المنزل، فلم يسمع بعدها شيئًا.

العقل بارع في ملء الفراغات بحسب السياق، لذا كان عليه أن يضع تلك الأيام الستة في سياق ما يرتبط بالكتب المسروقة، ربما تنقل الكتب بعد ستة أيام من مكان إلى مكان مثلاً، أو ربما يعيدون الكتب بعد ستة أيام، وتلك الأخيرة أمنية أكثر منها ملئاً للفراغ.

أما المتحدث فهو – بلا ريب- لا ينتمي إلى البلدة، أو لا ينتمي إلى العالم لو أردنا الدقة، فالعالم هو البلدة والبلدة هي العالم، فطريقة حديثه غريبة، وصبيُنا لديه ذاكرة حديدية كذلك، ويعرف أهل البلدة شخصًا شخصًا، ولم يبدُ له أن ذلك الصوت قد مرَّ على أذنه من قبل.

وجاء السؤال الحتمي: كيف يكون الشخص من خارج البلدة؟ هل هناك أناس في الخارج؟ ألم تقض الكارثة على سكان العالم بأسره سواهم؟

توالت الأسئلة في عقله، قطعَها نفس الصوت الذي تحدث منذ لحظات، وهو يقول:

- سأذهب الآن.

لم يحتج الصبي إلى أي وقت قبل أن يقرر الذهاب خلف الزائر الغريب، فتبعه نحو الشرق حيث اتجه.

مرت الدقائق وابتعد كلاهما عن منزل بائع الكتب، حتى وصلا النقطة التي لم يتعدَّها الصبي يومًا، ولم يتعدَّها أحد من سكان بلدته منذ قرون خلت، فغريزة الفضول وحب السفر قد أشبعتها قراءة الكتب.

فمعَ الكتب، بلدهم أرحب من الأرض، وتاريخهم الذي عاشوه أطول من تاريخ العالَم بعالَم أو يزيد، فلا مكان في أرواحهم لم تملأه القراءة، كل الحفر قد امتلأت وفاضت، فأي سفر ينشدون بعد ذلك؟!

وَقَفَ حيث لم يتعدَّ من قبل، وأمامه يسير الزائر الغريب مبتعدًا. تزداد المسافة بينهما، وهو ثابت مكانه كأعتى جبل. يحاول رفع قدمه ليبدأ مسيرته، لكنّ أغلال الخوف والعادة تُثقلها، تزداد ضربات قلبه، ويلهث وهو يرى الشخص المبتعد أمامه تحت ضوء القمر وقد صار ظلًا أسود صغيرًا يكاد لا يتبيّنه.

ارتفعت القدمُ أخيرًا وتبعتها أختها، وسار تدفعه الحروف، وتلتفُّ السطور حول بعضها لتكوّن حبالًا ناعمة تجره، وتصفق له أغلفة الكتب بألوانها المبهجة، وتسكره رائحة الكتب.

ابتسمَ في سيره، وشعَر أن الأرض اتسعت أمامه.

ووصلا أخيرًا إلى كهف صغير، أظهرَ حدوده ضوء القمر، وأضفت الظلال على تعاريجه لمحة فنية، جعلته وسط الخواء لوحة فنان يعشق الليل.

دخلَ الرجل إلى الكهف من فتحة صغيرة اضطر أن ينحني ليلجها. ووقف الصبي على جانب الفتحة يختلس النظر، مع أن مجال الرؤية كان ضيقًا.

أضاء نور خافت ظلمات الكهف، هي نار كما اعتقد، فذلك الضوء المتراقص لا ينجم إلا عن النار.

- نار، مرة أخرى!

جاء الصوت من الداخل هذه المرة، فارتعدَ الصبي، فقد جاء الصوت بكلمة فكّر فيها توًا، وكأن ذلك المتحدث أخذها من عقله وأكمل عليها.

هدأ، ثم بدأ البحث عن مصدر الصوت، وفي أثناء بحثه عدَل من وضعيته أمام المدخل الصغير ليتسع مجال الرؤية أمامه. يعرف أنه بذلك يخاطر بكشف نفسه، لكنه شعر أنه اقترب من حل لغز اختفاء الكتب، فوقفَ وأنصت.

ظهرت مجموعة من الرجال حول النار، ومنهم الرجل الذي رآه عند بائع الكتب.

أكمل بادئ الحديث:

- أكره الليل، لأننا نضطر لإشعال النار؛ إني أمقتها وأمقت حرارتها ونورها ورائحتها السيئة.

ردَّ آخر:

- كلنا كذلك يا صاحبي.

تحدثَ زائر القرية أخيرًا:

- أخبرتُ صاحب المتجر أنه لا يتبقى سوى ستة أيّام على الأكثر.

وأكمل بعد صمت:

- ستة أيّام ونرحل عن هذا المكان، وهم أيضًا سيرحلون معنا.

وأشارَ إلى ركن من أركان الكهف حيث تتراصف مجموعة من الصناديق، واستمر في حديثه:

- ستكون جنّة بلا ريب، يوتوبيا بلا بشر، أفضل من يوتوبيات توماس مور والفارابي وأفلاطون.

قيلَ في الدقيقة الأخيرة ما يكفي لإصابة الصبي بجنون لا براء منه، من أين نبدأ؟

حسنًا، الصناديق، هل تحوي الكتب التي جاءت من المتجر؟ ويوتوبيا بلا بشرا بلا بشر، بلا ماذا؟ وما هؤلاء الأشخاص إذن إن لم يكونوا بشرًا؟ ولماذا يكرهون النار؟

ولم يدرِ وهو وسط أفكاره المتلاحقة، أن أحدهم قد اقترب منه، فأتت القبضة التي أمسكت ذراعه، على ما تبقّى في جسده من دفء.

- من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟

جاءت الكلمات عنيفة سريعة.

ردّ:

- أنا.. أنا صبي من البلدة، وأحاول البحث عن الكتب المسروقة فقط.

ولتبرئة لنفسه، أكّد:

- ولا آبهُ لشيء آخر.

تلاحقت أنفاسه وهو يتكلم، حتى يبدو أن من قبضَ عليه قد رقّ لحاله، فردّ القابض على ذراعه:

- حسنًا، تعال معي.

فدخل معه الصبي، وقد هدأ روعه، فلاحظ ما لم يلاحظه عندما ارتاعَ أوّل الأمر.

لاحظ أن جزءًا كبيرًا من رقبة خاطفه عليها علامات حروق، واقترب من الرفقة وما زالوا متحلقين حول النار. فقال له الخاطف:

- اجلس.

وقبل أن يجلس لحظت نظراته أن جلّهم يحملون علامات حروق على وجوههم وأيديهم، وما خفي كان أعظم.

فكّر الصبي إن أولئك الرجال لا بد أنهم ضحايا حريق أو ربما عملية تعذيب من التي قرأ عنها في التاريخ البشع للبشرية. ربما لهذا يكرهون النار.

البشرية؟ ألم يسمع منذ قليل أنهم ليسوا بشرًا! لقد أبى عقله التصديق فأرغمه على أن ينسى،

حتى ذكرته خاطرته حول التعذيب الذي مارسه البشر بحق بعضهم.

جلس الصبي، وعندها استطاع أن يحصيهم، فكانوا ثمانية وتاسعهم الرجل الذي قبض عليه، واستطاع كذلك أن يميز زائر البلدة، وهو نفسه الذي أخذ دفة الحديث، فقال:

- لماذا تريد سارق الكتب؟

بدا للصبي أن إجابة هذا السؤال بديهية، لكنه أجاب:

- نحن لم نقرأ كتبًا جديدة لأيام طويلة، والوضع في البلدة كارثي، أريد أن أكشف السارق لنستعيد الكتب.

نظرَ محدِّثه حوله نظرة استغراب تختلط ببعض السخرية، ورد:

- منذ متى كان البشر يحبون الكتب؟

ذكّره السؤال بصاحب المتجر، وأكّد مجددًا له أن أولئك الرفاق التسعة من خارج البلدة، فردّ الصبي:

- ومنذ متى كنّا لا نحبها؟ منذ ولادتي لم أعرف أحدًا لا يحبها في البلدة.

- آه، بلدتكم، لم أكن أتحدث عن البلدة تحديدًا، لكن ما حكاية بلدتكم هذه؟

- بلدتنا ليس لها حكاية، أناس عاديون، نحب الكتب، ونعتمد عليها مصدرًا للمعرفة.

بدأت لهجة الرجل الغريب تتغير، يبدو أن شيئًا في كلام الصبي قد أخبره عكس ما كان يعرف، فسأل يطلب المزيد.

- إلى أي مدى تحبونها؟

وهنا استسلمت الرفقة لحديث طويل عن البلدة والكتب، قصّ عليهم الصبي أنهم يشترون الكتب لقاء أجزاء من أعمارهم، وقصّ عليهم مأثورات الشراء، وأكبر عمليات شراء الكتب التي عرفها وسمع عنها.

بدا أنهم استمتعوا كثيرًا بحديث الصبي، ولمّا شعر الصبي منهم ذلك، دخل الاطمئنان إلى قلبه، فسأل:

- لقد حدّثتكم عني وعن بلدي لساعة أو يزيد، أما آن لكم أن تعرّفوني بأنفسكم.

فأجاب أحدهم ببعض الحذر:

- نحن صنيعة البشر وتدميرهم، أقمناهم فهدمونا، وصادقناهم فنبذونا.

ربما لم يواجه الصبي إجابة مبهمة أكثر من هذه الإجابة طوال عمره. فأراد أن يسأل عن المزيد، لكنّه شعر أن التحفظ في الإجابة مبعثهُ عدم ارتياح منهم لقولها.

تعلقت أنظارهم جميعًا بالنار، وشكّلت طقطقة الأخشاب المحترقة الصوت الوحيد في ذلك الصمت.

كان الهدوء مشوبًا بعدم الارتياح، لا الصبي اطمأنّ بتلك الإجابة المبهمة، ولا الرفقة اطمأنت، لأنهم يعرفون أنه ينتظر إجابة شافية.

لكن زائر القرية أذنَ لهذا الصمت أن ينتهي عندما قرر أن يتحدث حديثًا أكثر وضوحًا:

- ألم تفهم بعد يا صغير؟ نحن كتب! كتب محترقة أو نصف محترقة، نجونا من محارق الكتب التي أشعلها البشر لمئات السنوات.

ردَّ الصبي بانفعال:

- ماذا؟ كتب؟!

وصمت بعدها لدقيقة، ثم أكمل وقد عاد إليه بعض هدوئه:

- فهمتُ الآن معنى أنكم لستم بشرًا. ولهذا تكرهون البشر، ولهذا تريدون العيش بعيدًا عنّا، اتضحت الأمور إذن، أنتم اللصوص، سارقو الكتب.

ضحك، ثم قال:

- يا الله، لقد سرقت الكتبُ كتبًا!

- لسنا لصوصًا، بل أنتم اللصوص، سرقتم أعمارنا بالحرق، وما فعلنا ذلك إلا لنمنعكم من المزيد من السرقة.

- سرقنا ماذا؟ ما الذي تقول؟! ألم أخبرك منذ دقائق كم نحب الكتب؟ ألم أخبرك أنّ غياب الكتب عن قريتنا زرع فيها بؤسًا لا نعلم متى سينتهي؟

وتذكّر بعد ذلك أنّه لم يسأل أهم سؤال في خضم انفعاله، فسأل:

- ثم قل لي، أيّ كتب تلك التي تتحول إلى بشر؟

- آه.. تريد أن تعرف القصة إذن.

- بكل تأكيد.

- حسنًا، إليك ما حدث.

وبدأ يسرد الرجل قصته، عفوًا! بدأ يسرد الكتاب قصته:

- من مكان ما في الخارج، يأتي صاحب المتجر بالكتب التي يبيعها لكم، عرفَ التاجر هذا المكان قبل أن تحدث الكارثة التي أودت بالبشرية، بدأ الرجل ينقل إليه كتبًا من آلاف المكتبات من بلاد كثيرة زارها بعد الكارثة، لم يعارضه أحد طبعًا، فلم يبق من البشر في تلك البلدان من يعترضه.

إن لم تعرف، فهناك نظرية قديمة جدًا تقول إن المكان، أيّ مكان، لو اجتمع فيه عدد كبير من الكتب، وكبير هنا بمعنى كبير حقًا، آلاف آلاف الكتب أقصد، فسيُحدث فيه تأثيرات سحرية، أو دعنا لا نقول سحرية، بل نقول إن قوانين الطبيعة ذاتها تتغير عند الوصول إلى عدد حَرِج من الكتب في مكان واحد.

لم يجد التاجر مكانًا غير بلدتكم يذهب إليه بعد الكارثة بسنوات، فهناك تجمَّع كل الناجين ليعيشوا مع أهلها الأصليين، وبدأ يبيع كتبه هناك مقابل الأعمار، وأستطيع أن أخمن من حديثك أن تأثير الكتب نفسها جعل الناس هناك يُقبلون على المزيد من القراءة والكتب.

أما نحن فكنا ضمن المكان الذي جمع فيه كتبه، وفي ليلة غريبة من ليالي الشتاء الماضي، وجدنا أنفسنا بشرًا كما ترى، والغريب أنه لم يتحوّل منّا إلا من نجا من محارق الكتب عبر التاريخ، ربما أُريد لنا أن ننقذ ما تبقى من الكتب من يد البشر العابثة.

ذهبنا إلى التاجر وعرضنا عليه أن يعطينا الكتب في متجره، وكذلك أن يسلمنا جنة الكتب حيث جمع كتبه عبر السنوات، فوافق لأنه سئم الكتب بعد هذه الفترة الطويلة التي قضاها في تجارة الكتب، أو هذا ما قاله، إذ إنني بدأت أرتابُ في أمر ذلك الرجل.

لكن الشيء الغريب الذي لم يخبرنا به هو أنكم تحبون الكتب كما قلتَ أنت، فظننا أن هواية الكتب عندكم تقتصر على عدد قليل كما هو ديدن البشر ودأبهم قرونًا.

المهم، عرفنا حيلة نحوّل بها باقي الكتب إلى بشر أمثالنا، أخذنا الكتب من المتجر، وبدأنا في تطبيق حيلتنا التي ستستغرق ستة أيام، وبعدها نأخذ إخوتنا معنا ونذهب إلى جنة الكتب لنحوّل الكتب الموجودة هناك، لنتجه بعد ذلك إلى مكان لا يجدنا فيه البشر أبدًا، تلك هي

اليوتوبيا الخاصة بنا.

حضرَ الصمت مجددًا، وعادت طقطقة الأخشاب وتراقص النار يشكلان مظاهر الحركة الوحيدة في الكهف، كان ذلك حتى قال الصبي:

- حسنًا، كانت هذه خطتكم قبل أن تعرفوا الحقيقة، قبل أن تعرفوا أن أغلى ممتلكاتنا هي كتبنا، أغلى حتى من أرواحنا.

نظرَ أفراد الرفقة بعضهم إلى بعض، وكأن قرارهم قد اهتز، لكن ما زال في أنفسهم بقايا شك في البشر. فقال أحدهم:

- لا تستطيع أن تلومنا في شكّنا، لو رأيت ما رأينا، لكان حالك -في عدم الثقة بالبشر- كحالنا أو أسوأ.

الخامس

«وهكذا، فقد أبليتم أيها الطلاب بلاءً حسنًا في هذه الليلة بإلقاء آثار الماضي هذه في قلب النيران. هذا استعراض مفعم بالقوة وعظيم... الماضي يرقد هنا في قلب النيران... واليوم تظلنا هذه السماء، وأمام هذه الألسنة من النيران سنقسم قسمًا جديدًا: الرايخ الثالث والأمة وزعيمنا هتلر- يعيش! يعيش! يعيش!».

جوزيف جوبلز، وزير الدعاية الموجهة الألماني، على شرف محرقة نازية من محارق الكتب.

«لو رأيت ما رأينا»، عندما وصل المتحدث إلى تلك النقطة تنهّد، ولمعت عيناه بفعل دموع عصية على السيل، وتوقف حديثه بفعل أنفاسه المتسارعة، لكنه سرعان ما استعاد تحكمه بكلماته، فقال:

- لقد كنتُ هناك، في ميدان واسع في غرناطة، الصرخات الحماسية ما زالت تدوي في أذني «أحرقوهم! أبيدوا الهرطقات!»، ألقوني من دون رحمة في اللهب المستعر، كنتُ مجموعة مخطوطات إسلامية، جمعني أحدهم في صورة كتاب ووضعني في مكتبة. جمعنا الهمجيون من كل أنحاء المدينة، أتذكر رفيقًا عبريًا ألقوه قبل أن يلقوني، ولم يكن له من حسن حظي نصيب، فقد التهمت النيران كل صفحاته قبل أن يُنقذ مثلي.

لم تحرق النار سوى ثُمن عدد صفحاتي، وأنا أكثر الإخوة حظًّا هنا، فما بالك بمعاناتهم!

الكتب يا صغير كتبت لتُقرأ، فإن تحرق صفحاتنا، ستلتهم أجزاء من أرواحنا.

وهذه حكايتي، وهي أقل حكاياتهم قسوة.

أشارَ إلى زائر القرية وأكمل:

- ربما تشاطرنا شكّنا لو حكى لك كتاب «نداء البرية»(1) حكايته، لكنه لن يفعل؛ لأن قسوتها ستربط لسانه.

وعندها قام زائر القرية من مقامه بسرعة، ثم انزوى في ركن من أركان الكهف.

وأكملَ القاصّ:

- لن يستطيع أن يحكي لك كيف حاول النازيون تمزيقه قبل أن يلقوه في النار، وكيف شعر بكتب «أينشتين» بجواره تئن من قسوة الألم عندما تجعدت صفحاتها المزيّنة بالمعادلات والأرقام، ثم احترقت. كيف كانت لوعته لوعتين، واحدة عندما اختفت الحروف حرفًا بعد حرف

من صفحاته بسبب الحرارة الشديدة، وكأنّ لصًا يسرق منك أولادك بعد أن كبلك، فتُلقي حواسك خلفهم، لكنهم يتفلتون من بصرك ومن سمعك حتى يتلاشوا. واللوعة الأخرى عندما بدأت النيران في التهام الصفحات نفسها.

أردفَ واللوعة بادية على ملامحه:

- لن يحكي لك كيف استغاثت كتب «هيلين كيلر» وهي تتبخر، ورائحة احتراقها تخترقه. ولن يحكي لك باقي الرفقة شيئًا من آلامهم، ولكن اعلم أنه ألم عظيم.

والحق إنّ الصبي لم يُرد الرد، لن يقول لهم إنّ بشر الحاضر اختلفوا عن بشر التاريخ، فهو يعلم أن حديث القاض لم يكن اتهامًا بقدر ما كان تنفيسًا وشكوى عمرها مئات السنوات. فآثر الصبي الصمت، فلا موطئ لكلام يستطيع أن يعرض بضاعته، في سوق الحزن المنصوب ذلك.

تسللت الرفقة واحدًا بعد واحد من حلقة النار، وانزووا في أركان الكهف مثنى وفرادى، فظهرت ملامحهم داكنة بفعل الظلام.

ضمَّ الصبي ركبتيه إلى جسده بيديه، ودفنَ رأسه بينهما، وغاصَ وعيه في بحر من ظلمات النوم.

***

واحدة من قدرات النوم العظيمة أنه يُحيي المشهد.

التفكير اليقظ يمكّننا من تخيُّل المشهد، ربما بتفاصيل كثيرة، لكنّه مشهد ميت على أيّة حال ولو امتلأ بالحركة، فنحن في قرارة أنفسنا نعلم أنه مُتخيَّل أو غير منطقي. أمّا النوم فيمنطق اللامنطقي، مشاهد من هنا وهناك، شيء قرأناه، وشيء من ذاكرتنا، وشيء تمنيناه، ثم نجد أنفسنا في مشهد منسوج بعناية، نعيشه بأحزانه وأفراحه وخوفه واطمئنانه.

وفي قلب محرقة نازية وقفَ الصبي، هناك أحمق يخطب في طلاب متحمسين، والصليب المعقوف يسيطر على كل شيء، رايات وملابس، النار تشتعل، وصراخ الكتب يصل أذنه، يجري على النار ويقفز فيها، لكنّ المشهد يتبدل.

الملامح الآسيوية هذه المرة، الحرس الأحمر في الصين يشعلون النيران في كومة من الكتب، إنها الثورة الثقافية الصينية. هناك مجموعة من الناس واقفون بجوار النار، يضربهم أفراد الجيش الأحمر بقسوة وغلّ، وأحد الحراس يصرخ «ستحاكمون أمام لهيب الثورة الثقافية الكبرى».

بدأت المشاهد تتسارع، قصف مكتبات البوسنة من قبل الصرب في نهايات القرن العشرين، وأعمال مارتن لوثر يتبعثر رمادها في القرن السادس عشر.

انقطعت المشاهد، وفتحَ الصبي عينه.

آلمهُ عنقه، لا بد أنّه نام على هذه الوضعية ساعة على الأقل. خَبا لهيب النار فتعذرت الرؤية المشوّشة أصلاً لأرجاء الكهف، فلم يظهر له أي من أفراد الرفقة.

اتّجه إلى الركن الذي انزوى فيه زائر القرية، وهناك لم يجده، نادى فلم يجبه أحد، هرولَ بين الأماكن التي رآهم قد جلسوا فيها قبل نومه، أشعلَ قطعة من الخشب وحملها لتضيء له، لكن لم يبقَ لهم أثر سوى صناديق الكتب التي تركوها خلفهم، خرجَ من الكهف باحثًا بتلهف، لكن لا جديد، اختفوا جميعًا.

لوهلة ظنّ أن أحداث الليلة ما قبل نومه كانت هلوسة أو حلمًا طويلًا، لكن وجود صناديق الكتب والنيران أثنياه عن تفكيره.

هبط الفجر، فبشّرت الأشعة الناعسة من الضوء بقدوم الشمس، اتّجه نحو الصناديق وفتحَ أحدها، فوجد الكتب المختفية، أراد أن يحتضنها قبل أن تقع عينه على وريقة صفراء على صندوق من الصناديق.

«سِر غربًا مسافة يوم، تصل إلى نهر واسع، سِر على ضفته الشرقية يومًا ونصف ناحية الشمال، تجد مبنى ضخمًا، هناك جنّتك. لا تخفْ لن تصبحَ هذه الكتب بشرًا، لقد عطّلنا حيلتنا».

إذن، ذلك هو المكان الذي جمعَ فيه صاحب المتجر كتبه على مدى قرون.

فكّر في مصير الرفاق التسعة، هل هربوا إلى اليوتوبيا التي رغبوا في إنشائها؟ هل سيظلّون بشرًا إلى الأبد؟ أم سيعودون لطبيعتهم في وقت ما؟

وبالطبع لم يصل إلى إجابة!

عزمَ على العودة إلى البلدة ليخبر الناس بما حدث، فخرجَ من الكهف، وكان نور الشمس ساعتها قد استشرى، ثم بدأ مسيرة العودة.

السادس

لماذا نحبّ الكتب؟

تردّد هذا السؤال في عقله وهو يبدأ مسيرته عائدًا.

هو، كما باقي أبناء بلدته، يستمتع بالقراءة، ويحب الكتب، لذلك فالكتب مرتبطة عنده بفعل استمتاع. وإن ساءلَ نفسه: لماذا الكتب مهمة؟ لكانت إجابته نفس الإجابة.

«لكن هل هذه هي الحقيقة؟ هل الكتب مهمة لأنّها ممتعة؟» سألَ نفسه.

لقد غيرت ليلة الأمس الكثير فيه، أعطته أبعادًا جديدة للتفكير في أهمية الكتب، كان غريبًا عليه أن يتصور شخصًا قد يحرق الكتب بهذا الحماس، مع أنّه قرأ عن عشرات الأشخاص الذين فعلوا ذلك.

كيف تحمل كل هذا الغلّ لمجموعة أوراق ولو حَوَت ما يناقض فكرك؟

ومن هنا بدأ يدرك أهمية الكتب لمجتمعات الماضي. إنّ صلة الناس بماضيهم (والتي هي محركة لأفعالهم الحاضرة) كانت الكتب حاملتها الكبرى، فإذا أردتَّ أن تغرّب مجتمعًا عن أصله، ابنِ بينه وبين كتبه حاجزًا، وكان الحرق هو وسيلة الطغاة المفضلة، وحينها ستبيد الهويةَ الدينية والثقافية واللغوية لذلك المجتمع المقتول.

هذا بخلاف التدمير المباشر لأي دليل يثبت حق ما لشعب محتل، حق في أرض محتلة أو هوية ضائعة.

دارت الأفكار في عقله، وآنسته في طريقه، كما آنسته حيوانات البرية التي ظهرت أمامه من حين إلى آخر في طريق العودة، وأعطاه اتساع السماء أمامه أهمية أخرى للكتب.

هل كنا لنعلم عن السماء ونجومها وكواكبها شيئًا لولا العلم الذي تراكمَ في الكتب؟ لو بدأ أرشميدس من الصفر، وبدأ نيوتن من الصفر، وبدأ أينشتين من الصفر، ما كنّا لندرك إلا ما يكتبهُ جيلنا، أو جيلٌ ممن سبقنا، وهكذا ستُطمر المعارف في مستنقع النسيان، وسيدركها الموت بعد أن يدرك أصحابَها.

اقتربَ من البلدة فبدأت أفكاره تتشح بوشاح السعادة، سيكون بطلًا لأهل القرية.

تُرى، كم من الوقت سيلزمه ليقنع أهل بلدته أنّ الخروج من القرية ليس بالسوء الذي تخيّلوه ونسجوا حوله الأساطير؟

ومع اقترابه، عادت الأهمية الأولى للكتب تداهم عقله من جديد، الاستمتاع، الفرحة بقراءة كتاب جديد، لمس غلاف جديد، رهبة جديدة.

لن يضطر أحد من أهل القرية لأن يدفع لصاحب المتجر من عمره، فهناك مزيد من الوقت للكتب.

وصلَ الصبي القرية، فوجد أهلها أمواتًا كما تركهم، تسارعت أنفاسه، وتلاحقت دقات قلبه، حاول أن يقولها بصوت عال:-

- لقد وجدتُ الكتب.

لكنها خرجت خافتة، لم يسمعها سوى شخص واحد، فوقف مشدوهًا بغير حركة.

توجَّه الصبي إلى منتصف الطريق، ثم قالها ثانية:

- وجدتُ الكتب.. لقد وجدت الكتب.

أخذ يكررها، وفي كل مرة كانت الكلمات تعطيه دفعات من الحماس، فيرتفع صوته:

- لقد وجدت الكتب.. لقد وجدت الكتب.

السابع

فكّر وهو ينظر حوله، يتأمّل من الطبيعة ما لم يتأمّله من قبل: هل حبستنا الكتب أم حرّرتنا؟ هل ضيّقت علينا عندما اكتفينا بها، أم سلمتنا مفاتيح الأزمنة والأمكنة؟

أجبرتهُ طفرته أن يتجاهل المقارنة، وأعادهُ عقله إلى درب السعادة من جديد، فأظهرت شفتاه ابتسامة قلبه.

تمنّى أن تشهد الرفقةُ تلك المسيرة العظيمة التي ذهبت لإحضار الكتب، كم سيفرحون عندما يرون الحماس وهو ينشب بين أهل القرية السائرين، حبًا بالكتب!

لكنه آمنَ أن تلك الكتب المظلومة ستعلم في يوم ما أن هناك من البشر مَن لا يسعده شيء أكثر من مرأى الكتب بكرة وأصيلًا.

أمّا أهل القرية فلا سعادة كسعادتهم، سُرقت جنّتهم ولسوف يستعيدونها، بعد يوم أو أقل!

مصادر للأحداث التاريخية والاقتباسات:

١- ريبيكا نوث، إبادة الكتب.. تدمير الكتب والمكتبات برعاية الأنظمة السياسية في القرن العشرين، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٤٦١، يونيو ٢٠١٨

2- Helen Rawlings, The Spanish Inquisition, Blackwell publishing, 2006

آلة الوعي المُطلق

الأوّل

جَرى وجَرى، والإنهاكُ يُعمل سيوفه في صدره، التنفُّس عسير وكأن الأكسجين قد سُرق من الهواء. وظلام الليل مُهيمن.

وما له ألّا يُنهك، وأقسى نشاط مارسهُ منذ عشر سنوات أن سار ثلاثمائة متر بعد أن تعطّلت سيارته. كان الصوت الذي سمعه بعد خروجه من بوّابة الشركة الخلفية سوطًا ألهبَ ظهره، فأطلق ساقيه للريح، حاملًا في يده ذاكرة تخزين داخلها قيح العالم وهلاكه المُوشِك.

لا يدري كم ابتعدَ عن الشركة لأنّه لم ينظر خلفه، كل ما يعلمه أنّه لو استمرّ مترًا آخر لتوقف قلبه البائس. اختبأ خلف إحدى أشجار الغابة الصناعية، ثم استرقَ السمع.

ساد صمت يشوبه صوت رياح تعبث بفروع الأشجار وأوراقها، ومرّت تلك الريح على جبهته المُغدقة ماءً. وكأنّها ترَبَّت على قلبه المُنهك حقيقة ومجازًا.

بعد ثوانٍ هدأ فيها قلبه، وابتلعَ ريقه، نظر خلسة من وراء الشجرة نحو الشركة، الاتجاه الذي أتى منه. يبدو أنّه ابتعد كثيرًا عن المبنى حتى كاد أن يتلاشى، ولولا إضاءة المبنى وضوء نصفِ قمر في السماء لما استطاعَ تمييزه من تلك المسافة. لكنّه مع ذلك لم يبتعد أكثر من خمسة كيلومترات، المسافة الآمنة من الشركة.

مسحَ المنطقة بعينيه، وبدأ شكّه في حواسّه يتسرب إلى قلبه: «يبدو أن صوت وقع الأقدام الذي سمعته كان صنيعة عقلي المضطرب». جلس على الأرض العشبيّة، وأسندَ ظهره إلى الشجرة. أغمضَ عينيه وتنفّس بعمق. وداعبت أطرافُ أصابعه الذاكرةَ التي يحملها في يده.

ألقتْ به الذاكرة في نهر يسير عكس الزمن، حتى وصل إلى منبع النهر، بداية كل هذا. وكيف خرج من سجن الوعي المُطلق.

الثاني

تذكَّر وما زالَ النسيم -الذي كان رياحًا منذ دقيقة- يداعب وجهه، وعيناه مغمضتان، وسمعه يُحاول أن يلتقط كل ما يستطيع تلقائيًا، تذكَّر كيف انضمَّ إليهم، ابتسمَ عندما تذكَّر مُحفِّز الإدراك المُزيّف، استدرجوه كي يشتريه، ثم وجد نفسه مخطوفًا.

«محفِّز يؤخذ قبل قراءة التقرير بنصف ساعة عن طريق الفم، يقول من جرَّبه إنّه يُحسّن كثيرًا من إدراك الأرقام المذكورة في التقارير، ويُساعد على رفع مستوى النشوة الناجم عن معرفة أنَّ هناك انخفاضًا في مستوى العشوائية، ويقلل من التوتر الناجم عن الأرقام السلبية» وفي النهاية اكتشفَ أنّه مصيدة كبيرة أوقعوه فيها، فلا مُحفِّز ولا غيره. قال أحدهم له:

- من بين كل من طَلَب المُحفِّز، رأينا أنّك أنسبهم للالتحاق بنا، كلّ أبحاثنا رشحتك. ومُستخدمو الآلة السابقون أكثر الناس إدراكًا لخطورتها.

فكّوا قيده بعد حين وأخبروه إنّه حر، لكن دعاه الرئيس لسماع ما يود قوله، فربما تغيّر رأيه.

سأله رئيسهم في أوّل لقاء:

- لماذا تستخدم الآلة يا سليمان؟

سؤال بسيط، لكنّه كان قنبلة ألقيت في بئر غاز، فانفجر. وكان انفجاره أن التحقَ بهم بعد حين في مسعاهم لهدم معبد الوعي المُطلق.

***

قبل سبعة أشهر.

قالوا إنّها تحت التجربة، ومثل كل شيء تحت التجربة، توقّع الجمهور أنّها هراء كبير كمُعجزات كثيرة وُعِدوها، أشياء لعلاج تام للأمراض المُستعصية، ورحلات رخيصة إلى القمر.

عدّها ثلث العالم شائعة، ولم يفهم الثلث الثاني ما هي، ولم يهتم الثلث الأخير أن يعرفها أصلًا، إذ إنَّ هذا ترف فكري لا يسمح لهم نمط حياتهم أن يفكّروا فيه أصلًا.

حتى إن استطاعوا صناعة مثل تلك الآلة، ماذا سيجني العالم من ورائها؟ هل سيرفع ذلك من جودة الحياة كما يُشاع؟

«آلة الوعي المُطلق»، يا له من اسم!

لكن بعد زهاء سنة على بداية انتشار الأخبار، بدا أن الموضوع جدي، انتشرت الإعلانات عن طلب الآلة المُسبق. كان ثمنها فاحشًا، لذلك توقع الناس أن الأغنياء وحدهم لديهم فرصة اقتنائها. ظهرت بعد ذلك إعلانات لمراكز تقول إنها تعاقدت بالفعل على شراء الآلة، وإنها ستُقدّم الخدمة لمن يرغب في استخدام الآلة مقابل مبلغ معين لكل جلسة استخدام، يُدفع بعد استلام التقرير. جلسات لن تدوم أكثر من ثلث ساعة مع الآلة الغريبة ستحسّن نمط حياتك، أو هكذا تنشر الإعلانات.

ولمّا بدا أن ظهور الآلة ثم استخدامها من قبل العامّة -أو على الأقل طبقة أوسع مما اعتُقد من قبل- أضحى مسألة وقت، اشتعلَ العالم نِقاشًا حول تلك التقنية.

أيّدها الكثير، وعارضها الكثير، ربما لأنّ كل جديد غريب، أو ربما لأنهم اقتنعوا فعلًا بضررها، أو على الأقلّ بعدم جدواها.

أقيمت مناظرة شهيرة جدًا، خُلّدت بعد ذلك في التاريخ، بين ممثل عن الشركة صاحبة الفكرة، ثم التصنيع والتوزيع، وعالم نفس شهير، حول الآلة وفائدتها للعالم، وأثرها الاجتماعي والاقتصادي. نُشرت المناظرة في ڤيديو، تجاوزت مشاهداته المليارين في غضون أسبوع.

المُقدّم:

- منذ أن أعلنت شركة «مُخ الأرض» عن فكرة آلة الوعي المُطلق، ثم مؤخرًا عن قرب إتاحتها للاستخدام الشخصي، أثير الكثير من الجدل حول إمكانية تحققها أصلًا، ثم جدوى استخدامها إن تحققت، فهي -بحسب الإعلانات التي ملأت الفضاء الإلكتروني- ستمكّنك من تحسين جودة قراراتك بإلغاء العوامل العشوائية في اللاوعي، والتي تتدخل في اتخاذ تلك القرارات.

كانت جماعتهم أربعة، رئيس، واثنان يلقبانه بذلك لأنّه من وضع بذرة الجماعة، وواحد لم يره سليمان أبدًا، وربما لم يره أحد من الثلاثة الآخرين، فهو يساعدهم من داخل الشركة نفسها من دون أن يُفصح عن هُويته، وسليمان خامسهم. ثلاثة الموجودين معه استخدموا الآلة في وقت ما، وجميعهم انتشلوا قبل أن يصلوا إلى الرقم عشرة من مرات استخدام الآلة.

- اسمع يا سليمان، إنّ هذه الآلة أعمق حفرة وقعت فيها البشرية منذ الحروب العالمية، ونحسب أن الحفرة ستُردم ونحن بداخلها، البشر بداخلها.

**

«الارتساء Anchoring، أن تعتمد على معلومة -ربما عشوائية- لاتخاذ قرار ما فتصبح تلك المعلومة مرجعك الذي ارتسيتَ عليه من دون وعي منك».

**

استيقظَ سليمان قبل غروب الشمس بقليل، تفقّد هاتفه، فوجدَ عمّه قد حاول الاتصال به أربع مرّات. فكّر سليمان: «سيناقشني حول الوظيفة بالتأكيد».

تُوفيت والدة سليمان عندما بلغ تسع سنين، ثم لحقها والده بعد أربع سنوات. ومنذ ذلك الحين يرعاه عمّه ما استطاع. حاول أن ينقله كي يعيش معه في منزله الفخم، لكنه رفض ذلك رفضًا قاطعًا، فقد رأى أن العيش في حفرة في قعر الجحيم خير له من أن يرى زوجة عمه كل يوم، تلك الخرقاء التي لا تطيق له اسمًا. وعلمَ تمام العلم أن عمّه سيعاني هو الآخر من جرّاء هذا الانتقال. وهو أرأفُ بعمّه من أن يجعله يعاني ذلك مع سيدة من هذا النوع.

أتمّ سليمان دراسته الجامعية في كلية إدارة الأعمال منذ سنتين، إرضاءً لعمّه ليس إلا، ومنذ ذلك الحين يحاول عمّه أن يستقطبه للعمل في إحدى شركاته لكنّه يتهرّب، إلى درجة أن عمّه وفّر وظيفتين لاثنين من أقرب أصدقائه، لربّما حفّزه ذلك على العمل، لكنّ ذلك لم يحدث.

لم يرَ سليمان في العمل أي شيء سيمثل إضافة إلى حياته، فقد قرر منذ حين أنه لن يتزوج، وما يتحصّل عليه من دخل من شركة والده الصغيرة، التي يديرها عمّه ضمن مجموعته يكفيه ويفيض. وإن قرّر عمّه أن يُعيد إليه شركته لأي سبب كان، سيبيعها وسيكفيه مبلغ البيع إلى أن يموت، لماذا إذن يُزعج نفسه بعمل يُحدد حياته وينغّصها.

بعد أن أفاق وتناول إفطاره (أو عشاءه بحسب توقيت باقي البشر)، أخذ يُقلّب في شاشة اللوحي، وذلك دأبهُ يوميًا لساعة على الأقل، قبل أن يخرج ليهيمَ مع أصحابه في شوارع المدينة ومقاهيها حتى الصباح.

في تلك الآونة، تسيَّدَ الإنترنت خبر عن آلة اسمها «آلة الوعي المطلق». يقولون إنها تستطيع أن تُريك المؤثرات العشوائية التي تؤثر على اتخاذ قراراتك من دون أن تعي أنها تؤثر عليك. حاولَ سليمان أكثر من مرة أن يتجاهل مقطعًا من ڤيديو يقولون إنّه مناظرة حول الآلة، لكن في تلك المرة ألقى نظرة أسفل يمين المقطع فوجدَ أنّ عدد المُشاهدين قد تجاوز ملياري مُشاهد، ففتح الڤيديو.

ألقى المُقدّم المتأنّق مقدمة حول الآلة، وأعطى خمس دقائق مبدئية لكل من المُتناظرَين ليعرض خلالها فكرته قبل بدء المناظرة فعليًا.

ممثل شركة «مخ الأرض» (بصوت هادئ):

- أهلًا بجمهورك الكريم، وسعدت جدًا أن أتيحت لي فرصة الحديث عن اختراعنا المذهل، الذي سيُحدث نقلة هائلة في طرق التفكير وفي جودة حياة الإنسان عامةً. سأبدأ حديثي هنا بتجربة قديمة لكنّها مهمة جدًا لتوضيح ما أودّ قوله.

طُلب من مجموعة قضاة أن يرموا نردًا مزيفًا لا يحصلون منه إلا على رقمين: هما ٣ و٩. ثم عُرضَت عليهم تفاصيل جريمة ما، وسُئلوا: هل يجب الحكم على الجاني بأقلّ أو بأكثر من الرقم الذي حصلوا عليه من النرد؟

تخيّل ماذا حدث؟ القضاة الذين حصلوا على الرقم ٩ حكموا بعدد أكبر من الشهور بكثير من القضاة الذين حصلوا على الرقم ٣. لقد آثرتُ بهذه التجربة أن أوضّح تأثير العشوائيّة على نظام حرج مثل النظام القضائي؛ إنّها العدالة، درة تاج التجرد والحياد، فما بالك بأنظمة أخرى؟

صمتَ الرجل ثواني يتأمل وجه المقدّم ليرى أثر كلماته، فهذا الوجه هو المرآة التي يرى من خلالها وقع كلماته على الجمهور الذي يشاهده.

أكملَ، بعد أن غيّر ملامحه ليواجه المشاهدين بدلًا من المقدّم:

- كم قرار خطير اتخذته في حياتك بناء على حدث عشوائي ليس له علاقة من قريب أو من بعيد بذلك القرار؟ هل نسيطر على حيواتنا فعلًا؟ أم أن العشوائيّة تُلقي بشباكها على قراراتنا، فتصيدها ثم تُشكّلها كيفما شاءت؟ ونحن نظنّ أننا فكّرنا ثم قررنا. أين هويتنا وذواتنا في

قراراتنا؟ كيف يمكنك أن تقول وقلبك مُطمئن: هذا قراري وهذا فعلي؟

كان الرجل واثقًا كثيرًا مما يقول، يبدو أنّه قد أجهدَ نفسه ليتدرّب على إلقاء تلك الجُمل على الجمهور. فكّر سليمان: «ولم لا؟ وقد علّقت الشركة في رقبته عرض وجهة نظرهم أمام الجمهور. ملايين النسخ بمليارات الدولارات تعتمد الشركة في بيعها على كلمات ممثلها، وكيف سيقول تلك الكلمات».

قال الممثل مُجيبًا على السؤال الذي ألقاه هو:

- لا شيء، حرفيًا لا شيء يمنحنا هذا الضمان. هل تجزم أنّ صوتك الانتخابي في آخر انتخابات نبعَ فعلًا عن اختيار منطقي أنتجهُ تفكيرك النقي؟

ابتسمَ ساخرًا، وأضاف:

- حتى إن أجبرتك زوجتك على هذا الاختيار أو ذاك، فإنّك أيضًا لن تضمن أن يكون هذا الاختيار نابعًا من تفكيرها، من دون عوامل عشوائية.

ثم أشارَ إلى المقدّم، وقال:

- لقد جئنا بآلتنا «آلة الوعي المُطلق» لننتشل الإنسان من غرقهِ في بحر العشوائية. لن تحتاج إلى أكثر من زرع هذه الشريحة الصغيرة على منطقة معينة في المخ (اقتربت الصورة من كف يده الحامل شريحة صغيرة لا تتعدى أبعادها المليمترات)، وعمليات زرع الشرائح أضحت شائعة كما تعلمون، حتى إنّ من يملك شريحة أصلًا لأغراض علاجية يمكنه تعديلها لتتماشى مع غرض الآلة مع أداء عملها الأصلي الذي زُرعت من أجله. إن مُخ الإنسان مغرور أحمق، يكره أن يُخطئ، لكننا هنا لنقوّمه، ونُرغم أنفه على اتباع المنطق، سنَدخل إليه في مخبأ اللاوعي، لكن من باب خلفي، حينها سنُحكم السيطرة على حياتنا كلية.

أوقفَ سليمان الفيديو، فقد قيل فيه ما يستدعي الكثير من التفكير. ربما للمرة الأولى في حياته ينظر إلى قراراته من هذا المنظور. أخذ يبحث عن تجربة القُضاة الي ذكرها مُمثل شركة مخ الأرض فوجدها، ثم قاده البحث إلى المزيد عن تلك المؤثرات العشوائية.

وبعد ساعتين من البحث والتفكير ارتدى ملابسه، ثم أخذ سيارته ليبدأ رحلته اليومية التي بدأها متأخرًا بفضل بحثه عن «الارتساء». قاد السيارة دقائق، ثم فعّل وضعية القيادة الذاتية، فلا مساحة في عقله للقيادة مع تفكيره في العشوائية.

أخذ يتأمل العالم حوله، الأبراج، لوحات الإعلانات، السيارات والأضواء وغيرها، كم من شيء

لا قيمة له من هذه الأشياء أثر يومًا ما في قراره؟

على الرغم من أنّه أمر مثير للأسى، فإنّه مثير للفضول بنفس الدرجة، أن تعرف كل نقطة تسببت في تحوّل مسار قرارك مع عدم وجود علاقة بينها وبين القرار أصلًا.

أجرى بحثًا سريعًا، حصلَ على رقم هاتف، وتواصل معه.

- سليمان... نعم... ٢٤ عامًا... لا، ليس لديّ تاريخ من الاضطرابات العصبية... بعد ثلاثة وعشرين يومًا؟... نعم يناسبني. أجل... منتظر اتصالكم... شكرًا جزيلًا.

ابتسمَ، واستمرَّ في خواطره حول عشوائية حياته وحياة البشر عامّة.

الرابع

يشرح أحد أفراد الجماعة:

- تختلف سرعة الوصول إلى مستوى الإدمان الأوّل من شخص إلى آخر طبعًا. المتعلمون ضحية أسهل للآلة لأنّهم مُدركون ومحيطون بماهية العشوائية إحاطة أكبر من غيرهم، ويعلمون جيدًا معنى أن تُهيمن عناصر غير مُدركة على حيواتهم، لذلك نستطيع القول إن الزيادة الهائلة في نسب المُتعلّمين في العشرين سنة الماضية كان تهيئة أرض خصبة لانتشار إدمان الوعي المُطلق، وإن كان ذلك غير مباشر أو مقصود، كبار السن أكثر تأثرًا أيضًا، لأن مرونتهم المعرفية أقلّ، ومن ثم فرصة وقوعهم في الانحيازات المعرفية أكبر.

**

اختلطَ الواقع بغيره في تلك اللحظات، فقد بدأ الوعي يتسرّب من بين يديه، ثم أطبقَ الظلام على سليمان.

بدأت الذراعان الروبوتيّان عملهما بدقة. وبعد دقائق وصلتا إلى المُخ. ثُبّتت شريحة صغيرة، ثم بدأت المهمّة الأشق، رَبْط آلاف الشعيرات الصغيرة التي تخرج من الشريحة إلى عصبونات معينة في المخ.

سليمان هو الخاضع رقم ٧١٧٢ للعملية التمهيدية لاستعمال آلة الوعي المُطلق على مستوى العالم. وعندما أفاق، أخبره الطبيب المشرف على العملية أن عدد المتقدمين لإجراء الجراحة حول العالم قد كسر حاجز المائة ألف منذ الإعلان عن فتح باب التقدم لإجراء الجراحة منذ شهر، مستعدين لاستخدام الآلة مباشرة بعد أن تتاح في الأسواق بعد ثلاثة أسابيع، سواء أكانَ ذلك الاستخدام للماكينات التي يمتلكونها في منازلهم، أو عن طريق المراكز التي اشترت الآلة، وتنوي تقديم الخدمة.

فكّر سليمان: «ربما يهوّلُ أعدادُ المُستخدمين دعايةً ليس أكثر»، وهنا ظهرت المفارقة لطيفة جدًا، فالطبيب يذكّره بعدد مستخدمي الآلة، يحاول أن يزيد من ثقته بالآلة، وهو الشيء الذي يريدون إلغاءه –كما يقولون- باستخدام الآلة. فأنت عندما تدخل تصويتًا على الإنترنت، وتجد الأغلبية تصوّت في اتجاه ما، ستميل تلقائيًا إلى التصويت للاتجاه الذي اختارته الأغلبية. هذا هو عقلنا، ما جُبلنا عليه للأسف».

قرأ في أثناء بحثه: «ربما السبب تطوّري، فأجدادنا أحيطوا بأخطار كثيرة، أخطار لم تكن

لتتجنب لو كانوا فُرادى، فوجودهم في مجموعة يساعدهم على البقاء أحياء. تخيَّل أنك وحيد، كيف ستنظر إلى كل طعام تأكله، أهو سام أم لا؟ أما مع المجموعة، فأنت في مأمن لأنّه غالبًا سيكون أحدهم قد تعرّض إلى هذا الموقف من قبل. فالحضارة تتقدم بزيادة عدد العمليات التي يمكن أن نجريها من دون تفكير، كما يقول ألفرِد نورث وايتهِد».

أخبره الطبيب كذلك أنّ الشريحة ستساعده على متابعة الحالة العامّة للعمليات في مخّه. وهو شيء إضافي «تقدمه الشركة تقديرًا لعملائها وحفاظًا على صحتهم».

الخامس

جلسَ سليمان في انتظار التقرير الصادر عن الآلة. فكّر: «آلة الوعي المطلق. اسم يُوقع في النفس شيئًا من الرهبة».

لم يكذب الإعلان حتى الآن، فلم تستمر جلسة استخلاص البيانات من الشريحة أكثر من عشر دقائق. رقدَ على طاولة، أغمضَ عينيه، بينما تسحب الماكينةُ البيانات لاسلكيًا من الشريحة المزروعة في رأسه. بيانات تحتوي على قراراته، ولماذا اتخذها. إنّها -كما فكّر- تحتوي على شخصيته.

بحسب العقد المُبرم بين العميل والشركة، لا يحق لأي أحد أن يعرف عن التحليل سوى العميل. حتى موظّفو الشركة لا يحق لهم معرفة شيء عن التقرير سوى أن النتائج سليمة أو حدث خطأ ما في أثناء التحليل، كي يجعلوا الآلة تُعيد التحليل مرّة أخرى.

يُحدد العميل حساسية تحليل بيانات التدخّلات المؤثرة في قرارات لاحقة، خلال الفترة الممتدة منذ آخر جلسة تحليل حتى اللحظة التي استُخلصت فيها البيانات من الشريحة لاسلكيًا. ولأن هذه أوّل مرة، فالمدة الزمنية هنا هي الممتدة بين بداية عمل الشريحة -بعد العملية بثلاثة أيّام- واليوم الذي استُخلصت فيه البيانات لأوّل مرة.

تتراوح الحساسية بين صفر ومائة، مائة تعني أن كل المؤثرات العشوائية التي لم يعيها العميل وأثّرت في قرارات لاحقة سوف تظهر، مهما صغرت تلك المؤثرات. وهذا بالتأكيد سيُطيل التقرير جدًا، وكلّما قلّ الرقم، أظهرَ التقرير المؤثرات ذات التأثير الأكبر، وتجاهل المؤثرات الأقل تأثيرًا على القرارات، وقصر التقرير بالتبعيّة.

اختارَ سليمان الرقم ٦٠ لحساسية التحليل، لا لشيء إلا لأنّها أكبر من النصف بقليل. فقد خاضَ كل ذلك من باب الفضول أصلًا.

استلمَ تقريره، وذهب مُسرعًا إلى مقهى بجوار المركز الذي يستخدم فيه الآلة، فلم يُطق صبرًا كي يذهب إلى منزله، وإن بعُد عن المقهى دقائق. فتحَ اللوحي، وأوصلَ إليه الذاكرةَ التي تحمل التقرير، وبدأ يقلّب نظره فيه سريعًا قبل أن ينظر في التفاصيل.

ازدادَ معدل ضربات قلبه كلما وجدَ أن هناك المزيد من الصفحات، أي المزيد من المؤثرات العشوائية التي تضرب حياته. أهذا أنا فعلًا؟ أهذه حياتي؟

عادَ إلى بداية التقرير ليقرأه تفصيلًا، هذا اللوحي بين يديه، الذي اشتراه بعد أسبوعين من

العملية، يتذكّر جيدًا كيف اختاره من بين عدة بدائل أخرى، وكيف قارنَ بين الأنواع والمواصفات ليختاره في النهاية.

يبين التقرير هنا أنّ رقمًا ظهرَ أمامه على لوحة إعلان كبيرة عن فِلم سيصدر قريبًا. من التاريخ والوقت المُسجّل، أيقنَ أنّه لا بد أن ذلك قد حدث في طريق عودته إلى منزله، ظلّ هذا الرقم قابعًا في لاوعيه –حتى إنّه لا يتذكّره الآن- إلى أن جاءت لحظة الشراء. فخرجَ الرقم من مخبئه، ليدفعه لشراء موديلٍ يحتوي اسمه صدفة على نفس الرقم الذي رآه على اللوحة الإعلانية. يقول التقرير إنّ اتخاذه قرار شراء هذا اللوحي بالذات يعود بنسبة ٩٢ في المائة إلى رؤية ذلك الرقم.

وضعَ اللوحي أمامه، وأسندَ ظهره إلى كرسيّه وشخصت عيناه مثل قتيل مخنوق: «يا الله، كيف هذا؟».

شعرَ ببعض الألم أسفل بطنه، فخرجَ إلى الشارع ثم عاد إلى طاولته في المقهى بعد حين. فتح التقرير مرّة أخرى، لكنّه أغلقه بسرعة، وأبعدَ اللوحي عنه كالمفزوع. وكأنّه جسم يحمل جُرثومة قاتلة. حتى عندما حمله أخيرًا إلى منزله كان يرمقه بنظرات تفيض اشمئزازًا.

مرّت الأيّام، تحاشى سليمان خلالها النظر إلى لوحيهِ، بل حتى التفكير فيما يحمل. وفي النهاية أخفاه بعيدًا عنه.

ولم تسِر تلك الأيّام كما أرادَ لها، فهو لم يتغلّب على تفكيره في العودة مجددًا إلى التقرير ليكمله.

كلما خرجَ إلى الشوارع ليلًا أصابته وخزة ألم، وهو ينظر بإمعان إلى لوحات الإعلانات، وإلى المارّة وألوان ملابسهم، وأرقام السيّارات، وأشكال السحب في السماء، وأنماط البلاطات التي يتشكّل منها الرصيف، وحتى الروائح، تعاملَ معها تعاملًا مختلفًا، فقد كان يشمّها بعمق.

يُفكّر: «أشياء لا رابط بينها سوى أنّ أحدها أو بعضها قد يدفعه إلى قرار بشأن موضوع لا علاقة له بتلك المؤثرات».

ألم يحمل داخلة لذة، ألم الهُوية الضائعة، ولذّة الاكتشاف وفضوله.

ومع ذلك فقد قاومَ بكل ما ملكَ الدافعَ الذي يجرّه إلى التقرير من جديد. بل اعتزلَ الإنترنت تقريبًا، من سوى بعض المواقع التي يضمن يقينًا أنّها لن تعرض إعلانات عن الآلة أو مميزاتها. ندرَ خروجه من المنزل، حتى أضحى أصدقاؤه – ويا للعجب- يحثّونه على الخروج.

برق في ذهنه سؤال، لا يدري كيف توارى عنه كل هذه المدة.

كان العنصر الجوهري في الإعلانات عن الآلة هو قدرتها على تحسين جودة الاختيار أو صنع القرار. لكنه في خضم صدمته نسيَ كيف يمكن أن يؤدي تقرير مثل التقرير الذي قرأه إلى تحسين حياته، لقد كاد التقرير أن يُودي بعقله ليس أكثر.

لم يَعُد إلى التقرير، بل دخل الموقع الرسمي لشركة مخ الأرض وحمّل أحدث نسخة من «دليل التعامل مع تقارير آلة الوعي المُطلق». على الرغم من أنّ الدليل مُرفق مع التقرير، فقد تجنّب الولوج إلى وحدة التخزين التي تحوي التقرير. وهو بذلك يُقنع نفسه أنّه يتجنّب النظر إلى ما بداخله، وإن كان كل ما فعله أن أخّر ذلك.

فتحَ الدليل، وأخذ يُقلّب حتى وصلَ إلى عنوان فرعي: «كيف تستفيد من التقرير الاستفادة القصوى»، وبدأ يقرأ.

على مدى الأيام التالية، تهدّم بناء المقاومة داخله حجرًا حجرًا، ووصل إلى اللحظة التي أيقنَ أنه بالغها. وربما كان بحثه عن الدليل خطوات الشيطان تُمهّد للخطيئة.

عادَ إلى التقرير، وولجَ إلى قسم التوصيات كما قرأ في الدليل، وهنا وجدَ سبعًا وأربعين صفحة إن اتُّبع ما فيها من نصائح من المُفترض أن يُقلل هذا من نسبة التداخل العشوائي.

لا ينظر في لوحات الإعلانات في أوقات معينة، ينام في أوقات معينة، يقرأ في أوقات معينة، لا يتخذ قرارت كبيرة في أوقات معينة، وفي النهاية وجدَ رابطًا يلعب من خلاله لُعبة مرّة كل سبعة أيّام، وكُتب بجوار الرابط أنّ الأبحاث الطويلة التي أجرتها الشركة أثبتت أنّ لعب تلك اللعبة على فترات محددة، يُقلل من الانحياز الناجم عن الارتساء بنسبة ٣٥ في المائة على الأقل. وأنهم لا ينصحون أن يتبادل مُستخدمو الآلة الروابط الخاصة بألعابهم، لأن تلك الألعاب – على الرغم من اتفاقها في المضمون العام- فإنّ كلّ نسخة منها مولّدة آليًا لتناسب صاحب التقرير من حيث عدد المراحل وطول المرحلة وغيرها.

حتى السن يلعب دورًا في تغيير نمط اللعبة ذاته، فكبار السن –مثلما يقول الدليل- أكثر قابلية لتدخل المؤثرات العشوائية في قراراتهم.

ثم أجابَ على واحدٍ وعشرين سؤالًا هي الأخرى مولّدة آليًا لتناسب نتائج التقرير. ثم أعطي تقريرًا مُصغّرًا عن إجاباته، وكيف تحكّمت المؤثرات العشوائية -التي وُضعت في سياق الأسئلة قصدًا- في إجاباته عن الأسئلة، وهو نوع من أنواع التمرين على اتباع أنماط أكثر منطقية

للإجابة عن الأسئلة.

أغلقَ سليمان التقرير بأسئلته وألعابه، وتساءل: «هل قُصِدَ من وراء العملية والخضوع لتحليل الآلة أن يُلغي تلك المؤثرات العشوائية أصلًا؟ ألم يكن ذلك منبعه الفضول ليس إلا؟ لكن من جهة أخرى هل سيترك كل تلك المحاذير التي اقترحها التقرير ويدع العشوائية تمسك بتلابيب حياته وتُنهكها؟

آه لو أبانَ التقرير المؤثرات العشوائية قبل أن تؤثّر على القرارات، وليس بعدها، كأن يقول لي: احذر من ذلك الرقم أو ذلك اللون أو تلك الجُملة، لأنّها ستؤثر على قرار مُستقبلي لك. لكن للأسف -يقول الدليل الذي قرأه- المؤثرات العشوائية لا تستطيع الآلة مُسبقًا أن تُحدد تأثيرها في قرار ما، لأنّها مؤثرات لا واعية تمامًا، وإنما تلتقطها الآلة عندما تطفو على بحر الوعي ليستخدمها العقل في عملية اتخاذ القرار.

لقد ظلَّ الإنسان بعقله القاصر وعشوائية المؤثرات الخارجية التي لا مناص منها يحكم الأرض ويتقدم، ويقيم حضارات. أليسَ من المحتمل أن تلك العشوائية المجبولة داخل عقولنا هي ما يجعلنا بشرًا؟ ألا يمكن أن تكون تلك المؤثرات مرتبطة بعوامل غير منطقية لكنّها مفيدة لنا تطوريًا أو اجتماعيًا أو عاطفيًا مثلًا، وأنَّ إلغاءها يعني إلغاء بعض من تلك الصفات؟!».

السادس

يحاجج سليمان الرئيس:

- لكن الأبحاث التي تقول إنّ الآلة تسبب إدمانًا ثبت عدم دقتها.

- هذا ما وصلك، لكنّها ليست الحقيقة كاملة، إنّ شركة مخ الأرض لديها صفقات مع أكبر وأعتى الجهات العلمية، وحتى الاقتصادية والسياسية، فهم لن يفرطوا في مليارات الدولارات التي درّتها الآلة عليهم- وتدرّها- بتلك السهولة. وحتى مع تلك العلاقات والنفوذ، اعترفوا أخيرًا اعترافًا لا ملامح له أنّ استخدام الآلة يسبب إدمانًا، لكنّهم دلّسوا على الناس بكلمة «الاستخدام المفرط» التي لا يعرف لها أحدٌ رأسًا من قدم.

أكملَ الرئيس بعد حين:

- إن إدمان الوعي المطلق يشيع بقدر لا تتخيّله يا سليمان، الكل يفصلون أنفسهم عن العالم كي لا يلوّثوا حياتهم بتراب العشوائية، والماكينة تُعزز ذلك الشعور في كل زيارة لها، ومع كل رقم ونتيجة. اللذة الناتجة عن شعور تقليل العوامل غير المُتحكّم بها في الحياة تفوق أيّ لذة أخرى، فما بالك أن تملك أرقامًا مُفصلة عن ذلك التحكّم، إن تلك الأرقام تتغلغل في العقل فترفع الدوبامين وتُخفضه، ويظنّ الشخص أنّه قد ملكَ زمام حياته. لكنّه للأسف، أمسكَ الزمام وسار بحياته نحو الفراغ.

**

بحلول ذلك الوقت، لم يتعرف سليمان على أحد من دائرة معارفه يستخدم الآلة، لكنّه كان يُقابل بعضًا ممّن يحكون عن تجاربهم مع الآلة على الإنترنت من حين إلى آخر. حاولَ البحث مليًا عمّن يسأل أسئلته عن الآلة إلى أن وقعَ في النهاية على مجموعة من مُستخدمي الآلة يطرحون تجاربهم فيما بينهم طرحًا فيه بعض العُمق.

غاصَ في تلك المجموعة ومنشوراتها، فوجدَ أن مُعظم مستخدمي الآلة استخدموها في البداية للفضول، مجرّد فضول، أحدهم كتب: «نويت أن أُجرّبها مرة واحدة فقط لأعرف إن كانت تلك التكنولوجيا تعمل فعلًا أم لا. استخدمتُ الآلة أربع مرّات إلى الآن. شيء غريب يدفعني إلى استخدامها، إغراء هائل لمعرفة كل التدخلات العشوائية في قراراتي، لا أكذب عليكم، لم أنفّذ تعليمات التقرير إلا في المرّة الأولى فقط، وبعد ذلك استخدمتُ الآلة لمعرفة المؤثرات العشوائية ليس إلا. معرفة تلك المؤثرات حتى دون أن أتحكم فيها. يبدو الأمر وكأنّك قد جرّدتَ

حياتك من ملابسها، ونظرتُ إلى تضاريس جسدها المليء بالعيوب، نعم إنها حياتي التي ظننتها مثالية، ثمة لذة في ذلك لا أدري مكمنها تحديدًا».

قال آخر: «بدأتُ أنظر إلى حياتي اليومية من منظور جديد تمامًا، بدأ وعيي بالمؤثرات من حولي يتسع، بدأت أشعر بالإعياء من التركيز الزائد في كل شيء يصل إلى حواسي، وأنا أحاول معرفة كيف سيترسب هذا المؤثر في لاوعيي ليفاجئني في المستقبل بيده وهي تعبث بقرار أتّخذه.

كل شيء، الأرقام، شاشة التلفاز أو الهاتف، الألوان على أغلفة الكتب والمجلات، الروائح اللانهائية التي أقابلها في أثناء سيري في الشوارع. لقد بتُّ أجلس في غرفتي أطول وقت ممكن، مُطفئًا ضوءها، حتى لا أتعرَّض للكثير من المثيرات أو التدخلات. حتى عملي طلبت إجازة منه حتى لا أخطو خارج غرفتي».

علّق ثالث: «حالي لا يختلف كثيرًا عن حالك، شعرت بصدمة هائلة هزّتني عندما قرأت التقرير أوّل مرّة، لكن وقْع قراءة التقرير في المرتين التاليتين ضعفَ أثره، وأصبحت أغمَر في متعة هائلة وأنا أقرأ التقريرين الثاني والثالث وقد قلّت معدّلات التدخل العشوائي في حياتي كما ظهرَ فيهما، انعزلتُ نوعًا ما عن العالم مثلك، لكن لم تتأثر حياتي كثيرًا، بل أصبحتُ أكثر ارتياحًا لأنني أتحكّم في حياتي بوعي، وكأنني استعدتُ السيطرة عليها. أو ربما لم يكن هناك سيطرة من الأساس كي أستعيدها. هههههه».

قرأ سليمان كل ذلك، وهو يحاول معرفة موقفه منه، هل صدمة العشوائية تلك ستنتهي حقًا؟! دارَ داخله حديث حتى قبل أن يقرأ ما قرأ، حديث بين طرفين أحدهما يشعر بنوع من اللذة وهو يستدعي حدثًا مستقبليًا عندما يقرأ التقرير القادم، ويجد أن نسبة التدخلات العشوائية في حياته قد قلّت، وطرف آخر لا يرى أهمية للموضوع أساسًا، وما الضير في أن يحكم حياته عشوائية أو غيرها؟ منذ متى وهو يأبه لذلك؟

كانت الشهور التالية فاصلة في حياته وربما في حياة مئات الملايين حول العالم.

بنهاية ذلك العام، أي بعد أقلّ من سبعة أشهر من تداول الآلة واستخدامها فعلًا، بلغَ عدد المُستخدمين حول العالم -كما تفاخرتْ مخ الأرض في تقريرها الأوّل عن انتشار الآلة- نحو مليار ونصف مليار فرد استخدموا الآلة على الأقل لمرّة واحدة، وهو أكثر من عشرة في المائة من عدد سكان العالم كلّه.

استخدمَ الناس الآلة، محاولين رفع جودة حياتهم: موظفون، ورياضيّون، ورجال أعمال، الكل

يُصدمون برؤية حياتهم عارية، ثم تضعف الصدمة مع الزيارات التالية للآلة.

مرّت شهور أخرى، خرجت في أثنائها أبحاث، وإن كانت على استحياء، تذكر فيها أن استخدام الآلة على المدى الطويل يؤدي إلى نوع من أنواع الإدمان، أطلق عليه «إدمان الوعي المُطلق» منبعهُ في الأساس -كما يذكر بحث من هذه الأبحاث- الصدمة الهائلة التي يتعرّض إليها الشخص عند رؤية نتائج التقرير الأوّل. ومع الاستخدام المتكرر للآلة تتلاشى الصدمة ظاهريًا لكنها تتسرب داخل مخ المُستخدم، فيحاول قدر المستطاع أن يُقلل تأثير العشوائية في حياته.

يلجأ في البداية إلى تجربة نصائح التقارير، لكنّه يجد أنه في اجتناب البشر ما يؤكد تقليل تلك المؤثرات العشوائية. يندمج شعور اللذة الناتج عن قراءة التقارير بنسبة أقل من العشوائية، مع التأثير الهائل الذي سبّبته الصدمة الأولى في مُخ المستخدم، ليخرج لنا أعجب إدمان في القرن الحادي والعشرين: «إدمان الوعي المُطلق».

الأعجب من هذا أن تقارير الآلة نفسها لم توضح أنّ هناك تأثيرًا عشوائيًا ما يؤثر على قرارات الشخص، وهو تأثير اللذة الناجم عن قراءة التقارير بعد تقليل نسب العشوائية، وهي التي من المفترض أن تُبين المؤثرات اللاواعية على القرارات. وعمومًا، لم تُعط تلك الأبحاث الكثير من الانتباه.

وفي غرفته المُظلمة، كان سليمان يُقلّب في هاتفه الذي لم يعد يستخدمه إلا قليلًا، مثلما لم يعد يستخدم التلفاز أو أي قناة تواصل مع العالم الخارجي إلا أيسر اليسير من الوقت.

قرأ الأخبار عن هذه الأبحاث وسخِرَ في عقله من ذلك الشَطَط المذكور فيها. ها هو قد استخدمَ الآلة أربع مرّات حتى الآن. ولم يشعر أنّ إدمانًا أصابه! نعم يشعر بلذة عند رؤية تقارير الآلة وهي تشير إلى انخفاض التدخل العشوائي في حياته. وهو أيضًا يشعر أن تواصله مع العالم قد قلّ، لكن مع ذلك يشعر أنّه أكثر تحكّمًا في حياته، ثم إنّه يشعر أنه يستطيع أن يتوقف عن استخدام الآلة في أيّ وقت، فأيّ إدمان ذلك؟.

قابلهُ ڤيديو لذلك العالِم الذي كان طرفًا في مناظرة مع ممثل مخ الأرض، ولكن في تلك المرّة وحده، وتذكّر حينها أنّه لم يُتمّ مشاهدة تلك المناظرة. فتح الڤيديو الذي يبدو أنّه رُفع إلى الإنترنت منذ دقائق فقط، فوجد العالِم متشنجًا:

- الآن نجني ثمار هذا الاختراع الحقير، ألم أخبركم أنّ مخ الأرض لم تُجرِ دراسات نفسية واجتماعية كافية حول الآلة وتأثيرها؟ إننا أمام كارثة هائلة تحيق بالجنس البشري، وهي إدمان الوعي المطلق. المشكلة الأعظم أن لا أحد يود الاعتراف بوجود مشكلة، كل الأبحاث التي تتناول

الأثر المقيت للآلة تُرفع من المجلّات. يبدو أن شركة مُخ الأرض أكثر من مجرّد شركة تكنولوجية متقدمة.

لن تعترفوا إلا عندما تجدون كل شباب العالم حبيسي غرفهم، لا يريدون شيئًا من هذا العالم سوى الانعزال عنه، لتقليل رقم يرونه بعد كل مرة تُخرج لهم فيها تلك الآلة تقريرًا، ويظنّون بذلك أنّهم قد أحكموا السيطرة على حيَواتهم.

لقد عانينا طويلًا من إدمان الهواتف المحمولة والشاشات، وفي المستقبل سنودُّ أن يستخدم أولادنا تلك الأدوات حتى. سنتمنّى ذلك بدلًا من أن يرقدوا على أسرّتهم في الظلام، يحملقون في أسقف غرفهم.

أمّا عن حكّام العالم وقادته. إن سيطرت عليكم مُخ الأرض إلى هذه الدرجة لأسباب لا يعلمها أحد، فأقول لكم إنّ العالم يحتضر، لن يَعمل أحد، لن يخرج أحد من غرفته، ستنهار الحضارة كلها ولن يبقى منها إلا آلات لعينة لا تفعل شيئًا إلا أن تنخر في عظام ما تبقّى للبشرية من أمل، سيـ...

توقّف الڤيديو فجأة، وظهرت رسالة تفيد أنّ الڤيديو حُذف من المنصة التي يشاهده عليها لأسباب تتعلق بخطأ معلومات علمية ذُكرت فيه.

وعلى كل حال، وقعَ الكلام على سليمان نفس موقع الأبحاث التي قرأ عنها، رأى أنّ في الأمرَ تهويلًا بُنيَ على تخمينات ومغالطات.

لم يلحظ سليمان أنّ هناك مُشكلةً ما في حياته، حتى بعد أن أضحى يقضي كل وقته في ظلام غرفته، وحتى بعد أن زارهُ عمّه مرات عديدة، مُحذرًا إيّاه من العواقب السيئة لنظام حياته الحالي.

ولم يلحظ أن مشكلة ما تغزو حياته عندما أضحى كل تفكيره منصبًا على نتائج التقرير الصادر عن الآلة، فأضحت أرقامها ترفعه إلى سماوات السعادة أو تخسف به أرض التعاسة، كأنّها –تلك الأرقام- تغيّر تمامًا من مستوى الدوبامين في دماغه.

يُغمض عينيه فيرى تلك الأرقام تتراقص في فضاء أسود فسيح، والرسومات البيانية التي تُحللها ترتفع وتنخفض منحنياتها، فتزيد دقّات قلبه وتقلّ تبعًا لذلك.

أغلق هاتفه، فأظلمت غرفته من جديد، وطفقَ ينظر إلى السواد لساعة أو تزيد، حتى غلبهُ النّعاس وهو يفكّر في اللذة التي سيحصل عليها غدًا بعد زيارة الآلة، والاطلاع على التقارير للمرة الخامسة.

السابع

قال الرئيس وهو جالس على مقعد يُحاول إصلاح عطب في جهاز من أجهزة التشويش التي سيستخدمونها:

- العشوائية يا سليمان موجودة في العالم منذ وجوده، الإنتروبيا تزداد في الكون، واللّايقين كامن في أعماق الذرات. قد يعني ذلك أننا لا نسيطر على حياتنا بقدر ما، لكنّها في كل الأحوال لازمة، الانعزال عن الحياة، وحتى التحكّم في كل المؤثرات التي نتعرض إليها بدعوى درء العشوائية يعني طعن الحياة في قلبها، والعشوائية هي قلبها.

ثم إنّ الانحيازات المعرفية المدمجة في عقولنا، والتي من نافذتها تتسلل العشوائية، ربما تكون قد غُرست فينا لغرض، فائدة نجنيها فندفع ثمنها.

قامَ من مقعده يُحضر لاصقًا من صندوق في نهاية الغرفة، أحضرهُ وأغلق الصندوق، وظل واقفًا ثوانيَ يُكمل فيها حديثه:

- في الأساس تُعيننا الاختصارات العقلية على اتخاذ القرارات بسرعة أكبر من دون أن نضطر إلى تحليل كل الظروف المحيطة تحليلًا دقيقًا. قد تسير في مكان ما وحيدًا، وتسمع ما يُشبه وقع الأقدام خلفك. هنا سيفترض عقلك تلقائيًا أن هناك من يتّبعك، على الرغم من أنّه قد يكون صوت أقدام شخص لا يأبه بك أصلًا. ومع ذلك ستُسرع دون أن تُحلل كل المعطيات، ستسير في طريق آخر، أو تفعل أي شيء من شأنه أن يؤمّنك.

أترى؟ نفس هذا السلوك العقلي الذي يمكّننا من اتخاذ قرارات تحافظ على حياتنا في وقت ما، هو ما يجعلنا نقع في أفخاخ معرفية نتيجة عدم استخدام كل المعطيات لاتخاذ قرار ما.

ونفس قدرة الإنسان على اكتشاف الأنماط في الأشكال والظواهر الطبيعية التي يلاحظها هي ما سمحَ لنا بتشييد بناء العلم الكبير الهائل، البناء الذي تدنّسه شركة مخ الأرض الآن بشرائها ضمائر المشتغلين به.

وقدرة الإنسان على ملاحظة الأنماط قد تهوي به في بحور استدلالات فاسدة عندما يُعمِم حكمه على فئة بشرية بأنّها قاتلة أو سارقة، لأنّ فردًا أو اثنين من تلك الفئة قد سرقوا أو قتلوا، وهذا مثال من ملايين.

الإنسان في إنسانيته عشوائي، عقله أعقد من مجرّات لكنّه خطّاء، ومن العبث أن نُفكّر أنه قد يكون إنسانًا من دون أن يلازم خطأ مخّه تعقيدَه.

**

اكتملت الخطة، اجتمع أربعتهم لمراجعتها، حاولوا كثيرًا الاختراق الإلكتروني عن بُعد ليحصلوا على مبتغاهم، لكنهم لم يُفلحوا، فقرروا اختراقًا على الطراز القديم بعد أن حصلوا على بعض المعلومات المفيدة من رجلهم داخل الشركة. سينزل سليمان من السيارة -التي يقودها أحدهم- على حدود نطاق الحماية على بعد خمسة كيلومترات من مقر الشركة، سيستخدمون أجهزة التشويش للتغطية على دخوله، يخترق المكان الذي لا يوجد به بشريٌ واحد، فالمنظومة كلها إلكترونية، ثم يذهب إلى الحاسوب المركزي وهناك يستخرج بعض البيانات على ذاكرة يحملها، ويخرج، داعيًا الله أن تكون البيانات التي أمدّهم بها زميلهم من داخل الشركة صحيحة عن قدرتهم على التشويش على بعد خمسة كيلومترات، وألّا تصيبه إحدى البنادق الآلية المُثبتة حول المقر، أو تُغلق الشركة أبوابها استجابة لحالة طوارئ، فيظل هناك محبوسًا حتى يقبضوا عليه، فتملأ فضيحته الآفاق.

**

سكنَ الهواء، وتوقّف النسيم عن مداعبة جبهته، وأضحى الصمتُ أكثر هيمنة. شعرَ أنّ جسده الآن قادر على السير بعد أن كاد الجري يُمزّق عضلات ساقيه، لكن قبل أن يقوم سمعَ نفس الصوت الذي سمعه قبل أن يبدأ في الجري. نظرَ خلفه فوجدَ ظلالًا تتسلل بين أشجار الغابة خلسةً، وبعد ربع ثانية من التردد بين الاختباء والهروب، قرّر نفس قراره الأوّل، وجرى.

وهنا لاحظته الظلال، فشعر أنها تتبعه. لا بد أنّ اختراقه قد كُشف، فاستدعوا عناصر بشرية للبحث عن المُخترق. ثانيتانِ وبدأت البنادق الآلية المُثبتة هنا وهناك تصب رصاصاتها نحوه، بل نحو كل شيء في نطاقها.

كان يجري وينتظر بين الرصاصة والأخرى إصابة في قدمه أو رأسه أو ظهره، لو خُيّر لتمنّاها في رأسه، سينزع وقتها من الدنيا نزعًا، لا سجن، ولا معاناة إصابة، ولا فضيحة. لكن أمنيته لم تتحقق مبدئيًا، فقد اخترقت إحداها راحة يُسراه. صرخَ، لكنّه لم يتوقف.

شعرَ أنّه قد اقتربَ من مكان انتظار السيارة التي جاء فيها، ولم يشعر بشيء بعدها.

**

انتشرت الأخبار، كانت البيانات التي حصلت عليها الجماعة ونشرتها لا تحتمل تأويلًا، «إدمان الوعي المُطلق» حقيقي، أبحاث مُزيّفة تُعظم من تأثير الآلة على جودة حياة الفرد، أرقام تتغير

في التقارير –ولو تغيرات طفيفة- لتعزز من شعور اللذة لدى المستخدمين.

كل المؤثرات العشوائية المرتبطة بالآلة وإدمانها وتأثيرها على قرارات المستخدم لا تظهر في التقارير، وطبعًا خصوصية البيانات كانت وهمًا كبيرًا. فقد حُللت كل بيانات المستخدمين وقراراتهم على نطاق واسع لتعزيز سيطرة الآلة على مستخدميها.

أما سليمان، فقد مات، والموتُ ذروة اللانظام، قضى بطلقة مباشرة في رأسه، قبل أن يأخذ أحد أفراد الجماعة الذاكرة من يده، ويفرّ من الحُرّاس المُستدعين.

ما الذي حدثَ بعد ذلك؟ وكيف ثارَ الناس على ذلك الاختراع الذي سلبَ العشوائية، ومعها جزء من الإنسانية من حياتهم؟

لا شيء، لا شيء فعلًا، استمرّ الكون في عشوائيته، واستمرّ جُلّ البشر غائصين في أوحال أوهامهم بالوعي المُطلق، لم يريدوا إنقاذًا من أيّ نوع، بل شعورًا زائفًا بالسيطرة على حياتهم في ظلام غُرفهم.

مقتل شرودنجر

الأول

لا أحبذ كثيرًا تدخين الشيشة، لكنّي حين رأيته يدخّنها في مقهى «جزرة الأصدقاء» صباح ذلك اليوم، أيقنتُ أنني لا بدّ أن أعيد التفكير في هذا مليًا.

إنّ الدخان الذي ينفثه يحيطه بهالة غريبة من الوقار، مع لحية بنية كثّة، وشعر رأس أشعث لكن تبدو عليه بعض محاولات التنسيق، تشعر كأنّك في حضرة فيلسوف إغريقي لكنّه عاش نصف حياته في شبرا.

اعتدتُ أن أتناول الشاي صباحًا في ذلك المقهى منذ أن تخرّجتُ من كلية الهندسة، قبل أن أنطلق في أرض الله، ذاهبًا إلى مقابلة عمل تنتهي برفضي، أو إلى المكتبة العامّة أسلي نفسي بالقراءة أو بالبحلقة في سقف المكتبة من دون أن أفعل أي شيء.

أمّا ذلك الفيلسوف الشبراوي، فقد لاحظتُ أنّه يجلس في المقهى يوميًا منذ نحو أسبوعين، يدخّن شيشة، يُخرج أوراقًا أو كتابًا يقرأ فيه، حتى أترك المقهى في العاشرة صباحًا. علمتُ من عبدالسلام القهوجي أنّه يرحل بعد الظهر مباشرة.

لا أعرفهُ، ولا أحد يعرفه، لكنّ مظهره الغريب والكتب التي يقرؤها جعلاه مريبًا؛ قراءة كتب في مقهى بلدي كفيل وحدهُ بأن يضعك موضع ريبة في هذا العصر، حتى إن عرفك كل من في المقهى، فما بالك بغريب.

تجرّأتُ ذلك الصباح، وقررت أن أحادثه قليلًا، فأنا أكثر فراغًا من دبّ باندا في حديقة حيوان صينيّة. ذهبتُ إليه فعلًا، وألقيت السلام فردّه، ثم استأذنته في الجلوس، وجلست بعد أن أذِن.

علمتُ أنّه ليس مصريًا بمجرد أن ردّ عليّ السلام، بل ليس عربيًا، لغته تَشي بذلك حقًا، وعاتبتُ نفسي كثيرًا كيف لم أعرف هذا من ملامحه قبل أن أتحدّث معه. حمدتُ الله أنّ أحدًا من أهل الحارة –حتى الآن- لم يبلغ عنه الشرطة لأنّه جاسوس يريد أن يفجّر القاهرة بست أو بسبع قنابل نووية.

الرجل ذو ثقافة واسعة، ويبدو أنّه استلطفني كثيرًا عندما ناقشته في بعض الأمور العلمية التي درستُها أو قرأت عنها. يبدو أنني أخيرًا وجدتُ فائدة لعشرات الكتب التي حشوت بها رأسي. ليت أمّي هنا الآن، فقد لقيتُ منها شتائم تُعد ولا تحصى في كل مرّة تجدني فيها أقرأ كتابًا خارج منهج الدراسة عندما كنت طالبًا.

عرفتُ أنّه يسكن في شقّة قريبة، وأنّه في الأساس من النمسا، لكنّه في مصر منذ سنوات طويلة.

أخذتنا الأحاديث ومرّت الأيّام حتى دعاني ذات مرة لزيارة شقته، فذهبت. أطلعني على بعض كتبه ومقتنياته، منها صندوق خشبي غريب، قال لي إنّه ورثه عن والده الذي كان عالمًا وأجرى به تجارب على قطة أو شيء من هذا القبيل، وورثه أبوه بدوره عن علماء آخرين وصولًا إلى عالِم لا يمتد إليه بصلة قرابة اسمه شربنجر أو شرمنجر، هو مزيج من أحرف كلمتي شوربة وبنجر... آه، تذكّرت، إنّه شرودنجر، إروِن شرودنجر، اسم سخيف لعالِم كما ترون.

بعدها حاولتُ البحث عن هذا العالِم في كل كتب تاريخ العلوم التي تقع بين يديّ وعن هذا الاسم، لكنّي لم أجد له أثرًا.

أعرف الكوانتم جيّدًا، درستُ أجزاءً منها في الكلّية، وقرأت عنها مما قرأت في الكتب التي كدّستها في رأسي سنوات، لكنّي فعلًا لا أعرف لهذا الرجل تحديدًا أيّ وجود أو مساهمة في الكوانتم.

أمّا الفيلسوف الشبراويّ –الذي أعلمَني منذ فترة أن اسمه لوكاس- فقد اختفى بين ليلة وضحاها، سألتُ عنه صاحب العقار الذي استأجرَ فيه الشقّة، فقال إنّه رحل هذا الصباح من دونَ أن يقول شيئًا. أعطاه ما تبقّى من مستحقّات الإيجار، وشكره على المدّة التي استقبله خلالها، ثم رحل.

كاذب أو مجنون، لن يخرج لوكاس عن هذين الاحتمالين إن كان اسمه لوكاس أساسًا. لكن لماذا يكذب عليّ؟ ولماذا رحلَ فجأة من دون أن يخبرني، بعد أن قضينا أكثر من شهرين معًا، نتسامر ونتناقش.

ذهبتُ إلى المكتبة العامّة التي هجرتُها لمدة، أقرأ وأقرأ. عسى أن أجد أيّ شيء عن ذلك الشوربة بالبنجر، لكن يبدو أنني لن أجد شيئًا.

صفر

في العام ١٩٣٥، حاول العالم النمساوي «إروين شرودنجر» Erwin Shrodinger أن يبرز غرابة ما يسمى بالتفسير الاحتمالي لنظرية الكوانتم بتجربة ذهنية غريبة جداً.

قطة داخل صندوق، ومعها مادة مشعة، وعدّاد جَيجر(لقياس الإشعاع). وصمم هذا العداد بحيث إنّه إذا استشعرَ إشعاعًا قادمًا من المادة المشعة فإنه يعطي إشارة ما لمطرقة (جاكوش) كي تكسر قارورة فيها غاز سام. والصندوق مغلق، لذلك فما بداخله بعيد عن الملاحظة.

ستبقى القطة في الصندوق لمدة ساعة، وخلال هذه الساعة هناك احتمالية لأن تتحلل المادة المشعة وهناك احتمالية ألا تتحلل. فإذا تحللت المادة المشعة ووصلت إلى العداد، فإن المطرقة ستكسر القارورة وينطلق الغاز السام قاتلًا القطة، والنتيجة النهائية في هذه الحالة أن القطة ميتة. أما إذا لم تتحلل المادة المشعة، فسيؤول الحال في النهاية إلى وجود القطة حية غير ممسوسة بسوء!

بحسب الكوانتم، فاحتمال تحلل المادة المشعة واحتمال عدم تحللها، موجودان ومتلازمان في الوقت نفسه طالما أن النظام غير ملاحَظ (هذه الاحتمالية أقضّت مَضجَع أينشتين). وسنحصل في النهاية على نتيجة غريبة، وهي قطة حية وميتة في نفس الوقت، طالما الصندوق مغلق عليها!

الثاني

في ليلة ظلماء هربَ فيها القمر من السماء، سارت قطّة رمادية في أزقّة البلدة بعد أن خرجت من صندوق ظلّت حبيسته أيامًا طوالاً. بدا عليها الإعياء الشديد، فترنّحت في مشيتها، ولم تدرِ أنها تسير على أرض أصلًا، بل بدت الأرض في عقلها وسطًا هلاميًا، تغوص أقدامها فيه مع كل خطوة تخطوها.

تتساءل في عقلها التعِب: إلى متى ستظل في هذه الدنيا وحيدة؟ وحيدة في كل شيء، يتوارثها مجموعة من العلماء المخابيل. يموت مخبول فيأخذها -هي وصندوقها الملعون- مخبول آخر، يُجري تجاربه عليها، فيلعب الموت معها بالنرد، فتارة تموت وتارة لا تموت. لعبة حظّ سخيفة ليس لها قواعد أو أحكام.

اتخذت قرارها منذ زمن لكنها ستنفذه الآن، ستبتعد عن كل البشر؛ أورثها مرأى البشر غمًّا لم تعد تطيقه، ولو لم يكونوا علماء، فأي روح يمكن أن تتحمّل كل هذا؟ إنّها القطة الوحيدة في التاريخ «القططي» التي يلاعبها الموت، الوحيدة التي نشأت في عقل عالِم. ثم تحوّلت في لحظة ما من فكرة إلى واقع مرير. القطّة الوحيدة التي ينطبق عليها ما ينطبق على الإلكترونات والفوتونات وكل الجسيمات تحت الذرّية عندما توضع داخل الصندوق اللعين الذي ابتدعه شرودنجر، النمساوي المسؤول عن حياتها الجحيمية.

هربت القطّة أخيرًا، وسارت لا تلوي على شيء غير نادمة على قرارها قيد أنملة، فخرجت من البلدة إلى الغابة، وتعمّقت في الغابة بقدر استطاعتها حتى لا يراها بشريّ بعد ذلك، وهناك اتخذت مستقرًا بجوار شجرة ضخمة.

دبّ الاطمئنان في قلبها أخيرًا، فنامت ملء عينيها، وفكّرت أنّه حتى لو افترسها مفترس من مفترسي الغابة، سيكون حالها أفضل من حالِها عندما أجرى المخابيل تجاربهم عليها.

تقلّبت ذلك الصباح وهي تخرخر على سريرها الترابي، وفتحت عينيها فوجدت وجهًا ينظر إليها من علٍ.

انتفضت، وماءت بصوت أفزعَ حيوانات الغابة، وطارَ على إثره طيور الشجرة التي نامت أسفلها فزعًا.

نظّرت مجددًا في الوجه، بعد أن ابتعدت عنه مسافة متر أو اثنين، ثم تفحّصت الجسد الذي يحمل الوجه، فإذا به جسد سلحفاة كبيرة، كبيرة حقًّا، لم ترَ مثله من قبل. ندوب سنوات طويلة

من الحياة تُركت على كل أجزاء الجسد، لا بد أنها طاعنة في السن.

قالت السلحفاة ببطء مريع:

- ما أفزعك أيتها الحمقاء؟ أرأيتِ شيطانًا على أبواب الجحيم؟

هدأت ثائرة القطة بعض الشيء، واقتربت من السلحفاة:

- لا، لكنها المفاجأة، لا أحد ينظر إلى نائم بهذا القرب، فيخرج من ظلام النوم مباشرة على وجه لا يعرف صاحبه، ولم يره من قبل، فيستيقظ النائم مفزوعًا كما فعلت.

تمتمت السلحفاة تحدّث نفسها:

- إن كائنات اليوم هشّة للغاية.

وصلت التمتمة إلى مسامع القطة، وانتصبَ شعرها غضبًا، وصرخت:

- لستُ هشّة!

- كم من قطة سُحقت تحت أقدام المارّة في إيليا.

- إيليـ... ماذا؟

- إيليا أيتها الشابّة الهشّة، المكان الذي انبثقتُ فيه إلى الحياة من عقل رجل حكيم يُدعى زينون.

هدأت القطة، وتساءلت:

- لحظة! أنتِ الأخرى جئتِ إلى الحياة من عقل رجل؟

- عجبًا! ألم أقل هذا منذ ثانية؟ أم هل تبخّرت الأمخاخ من الرؤوس؟

صمتت السلحفاة بعد ذلك، وكأنّها تَرَفّعت عن الخوض في مناقشة مع تلك القطة حول التماثل بينهما.

بعد دقيقة قالت السلحفاة:

- منذ أن رأيتكِ، عرفتُ أنّكِ لستِ طبيعية، بحكمتي الإغريقية ذات الألفين والخمسمائة عام، لي نظرة لا تخيب. فما قصتكِ؟

جلست القطة، وبدأت تتذكّر حكايتها التعيسة وتحكيها.

ظهرَ الغضب على وجهها وفي حركات شاربها عندما تأتي على ذكر شرودنجر، فهو سبب تعاستها الأوّل عندما اقترحَ تجربته الفكرية عام ١٩٣٥، وسط غصبة المجانين التي تجادلَ معهما حول طبيعة الجسيمات الصغيرة جدًا، مثل الإلكترونات والفوتونات. لقد انتمى إلى مدرسة تقول إنّ الجسيمات توجد في حالة تسمّى التراكب، أي أنّ الجسيم الواحد يمكن أن يوجد في عدّة حالات مختلفة من خاصية واحدة، فيمكن أن يكون في أكثر من مكان في وقت واحد إلى أن تحاول أن تنظر إليه.

عندما وصلت القطّة إلى آخر جملة، كانت ملامح الاشمئزاز قد سيطرت على وجه السلحفاة حتى كادت أن تتقيأ. لكن القطة لم تُلقِ بالًا لأي شيء، وكأنّها تحتفل أخيرًا بأن وجدت من يسمع قصّتها، فأكملت:

- أمّا أنا فقد كنتُ أداة، مجرّد أداة لتوضيح تلك الفكرة عندما وضعني شرودنجر اللئيم داخل صندوق وأجرى عليّ تجاربه، ثم ورثني علماء لم يرحموا ضعفي وكرّروا ما حدث من شرودنجر. حتى بات ذلك الصندوق سجني الدائم.

وصلَ النهار إلى نصفه، عندما أنهت القطّة حكايتها، وكانت السلحفاة قد نامت وهي تسمع الحكاية. ولم تدر القطّة أنّها نامت فعلًا، من فرط تأثرها وتركيزها فيما تحكيه. وعندئذ ركلتْ رفيقتها فاستيقظت وهي تتساءل:

- أين أنا؟!

ثم بعد قليل من الوقت، أدركت أين هي، وتذكّرت شطرًا من حديث القطّة قبل أن تسقط في بئر النوم، وقالت:

- يبدو أن هذه الغابة ينتشر في جوّها سمٌ من نوع ما يجعلكم تتفوّهون بهذه الخرافات.

- هل هناك قطط أخرى مثلي؟

- لا، بل أبقار!

- أبقار مثلي؟! عجبًا لم أسمع يومًا بأبقار شرودنجر!

- ليست أبقار شرودنجر، بل أبقار أينشتين.

- أبقار أينشتين؟! هل انتهى بها الحال هي الأخرى إلى هذه الغابة؟!

- يبدو أنّ هناك سابقَ معرفة كما أرى، ويبدو كذلك أنّكم رضعتم من بقرة الجنون ذاتها، لأنّهم

يقولون كلامًا لا يقل عبثًا عمّا تفوّهتِ به منذ دقائق.

- أوَ تعلمين؟ خير ما فعلتِ أنكِ أخبرتِني بوجود أبقار أينشتين هنا، لا بد أن أذهب إلى الأبقار في أسرع وقت ممكن، أين هيَ؟

- على رسلكِ أيتها الشابّة، فهيَ في مكان يبعد عن هنا مسيرة سبعة أيّام.

- عفوًا! سبعة أيّام بمعدّل حركتي؟ أم سبعة أيّام بمعدّل حركتكِ؟

- حركة؟ أي حركة تتحدثين عنها؟ وهل هناك حركة في الكون أساسًا أيتها البلهاء؟

الثالث

إذن فهي رحلة من سبعة أيَّام ستقضيها القطة برفقة سلحفاة زينون، أبطأ كائن على وجه الأرض، السلحفاة التي اقتنعت في يوم ما أنّه لا يوجد في الكون كله ما يسمّى بالحركة من الأساس، مجازيًا وحرفيًا.

شعدت القطّة كثيرًا أن وافقت السلحفاة على مرافقتها، على الرغم من بطئها، فالرحلة إلى أبقار أينشتين طويلة، والسلحفاة تعرف طرق الغابة جيدًا كما يبدو، ولم تتوقع أن توافق تلك السلحفاة المعتدّة بنفسها. وهي -السلحفاة- اشترطت شرطًا غريبًا قبل بدء الرحلة، وهو أن تتقدم خطوة واحدة عن القطة قبل الشروع في المسير، فحقّقت لها القطّة ما أرادت، على الرغم من أنّها لا تعلم الإضافة التي سيُضيفها ذلك التقدّم، أقنعت نفسها في النهاية أنّ السلحفاة بغرورها إنّما أرادت أن تكون القائدة بتقدمها تلك الخطوة.

بعد صمت دام ساعات، وبطء مريع من السلحفاة، تحدّثت القطّة، فقد أرادت فعل أي شيء لكسر هذا الصمت الذي لن تتحمله -يقينًا- سبعة أيّام.

- قلتِ شيئًا عن الحركة قبل أن نشرع في رحلتنا، قلتِ بعدم وجود حركة في الكون.

- نعم قلتُ ذلك.

- كيف ذلك ونحن نتحرّك الآن فعلًا؟

- حسنًا أيتها القطّة، يبدو أنّك تحبّين الجدال، وسأعطيكِ ما تحبين.

- تقدّمتُ عليكِ بخطوة في بداية المسير، أليس كذلك؟

- بلى.

- وأنتِ حين تصلين إلى النقطة التي بدأتُ منها، أكون أنا قد تحرّكت مسافة ما، وإن قصرت هذه المسافة جدًا.

- صحيح.

- وحين تصلين إلى النقطة الثانية التي بلغتُها سأكون قد تحركت مسافة ما، وسأظلّ أمامك في كل الأحوال، وهكذا...

ردت القطة بتردد:

- نعم... ربما!

- لذلك عندما أخرجني زينون الإيلي(2) من رأسه منذ ألفين وخمسمائة عام، جعلني أتسابق مع أخيل البطل الإغريقي الكبير، ليثبت صحة نظريته.

تساءلت القطّة:

- وهل سبقتِه.

- بالتأكيد سبقته.

وأضافت بعد ثانية:

- لكن في أفكار زينون طبعًا.

ابتسمت القطة:

- وأنا التي حسبتُ شرودنجر مجنونًا.

- خسئتِ أيتها الشابة.

- لكن كيف يؤدي هذا إلى عدم وجود الحركة؟

- بسيطة، لكي يتحرّك جسم ما من نقطة (أ) إلى نقطة (ب) فلا بدّ أن يمر بالنقطة (ج) التي هي المنتصف بين (أ) و (ب)، ولكي يتحرّك إلى النقطة (ج) لابد أن يمرّ بالنقطة (د) التي هي المنتصف بين (أ) و (ج)، وهكذا إلى ما لا نهاية. لذلك للوصول من نقطة إلى أخرى، فأنتِ تحتاجين عددًا لا نهائيًا من الحركات، والعدد اللا نهائي من الحركات يتطلّب زمنًا لا نهائيًا، لذلك فلا يمكن على الإطلاق أن نتحرّك من نقطة إلى أخرى، وبالتالي لا توجد حركة من الأساس.

- كيف لا توجد حركة، ونحن نتحرك الآن فعلًا؟

ردت السلحفاة بمنتهى الثقة:

- أثبتي أنّ زينون ليس على صواب بالرد على ما قال، فالمنطق أولى أن يُتّبع.

- وهل نكذّب أقدامنا التي نسير عليها، وأعيننا التي نرى بها سير أقدامنا، ونصدّق ضلال زينون؟

- منذ متى أضحى النظر -الذي هو حاسّة تضل- دليلًا يعلو على المنطق؟

لم ترد القطة، بل نشبَ في عقلها حريق من الأفكار تحاول أن تصل بواسطته إلى حل منطقي لمعضلة السلحفاة. هي تعلم يقينًا أنها سفسطة من نوع ما (وإن بدت متماسكة من الخارج)، لكن ما موطن الخطأ؟ ما موطن الخطأ؟ سؤال شغلها الأيام التالية.

الرابع

مرّت ثلاثة أيام وتبقّى أربعة على الوصول إلى أبقار أينشتين، ومع كل نقاش مع السلحفاة، تمنّت القطّة أن تنجح في مخططها، لأنّها لن تتحمّل فشلًا بعد كل هذا العناء، عناء البطء، وعناء طول الطريق، وعناء الجدال مع سلحفاة عتيقة مغرورة.

في بداية اليوم الرابع، وبينما هما على أهبة الاستعداد للدخول في عراك جدلي حول مثالية أفلاطون، توقّفت السلحفاة فجأة، وأخذت تحدّق بعيدًا نحو حصان أسود يميل على بحيرة ويشرب، همهمت:

- هَنز؟ أهو هَنز؟!

تساءلت القطّة:

- مَن هنز؟

لم ترد السلحفاة، بل استمرّت في ندائها:

- هنز! هنز!

التفت الحصان نحوها، ثم أتى بسرعة، وقال:

- مرحبًا أيتها السيدتان.

قالت السلحفاة:

- لم نرك في الجوار منذ سنوات.

- حسنًا، الوضع صعب، لقد تزوّجتْ فراشة، وتركتني منذ سبع سنوات، لذلك ساءت حالتي النفسية كثيرًا، فانعزلت.

- بئس الفراشة التي تكسر قلب حصان مثلك يا هنز.

كادت ملامح القطّة أن تتحدّث قبل أن ينعقد لسانها اشمئزازًا، وهي تسمع هذا الحديث الدائر.

- حسنًا أيتها السيدتان، هل من خدمة يمكن أن أقدّمها لكما؟

- هناك خدمة بسيطة ستُفيدنا كثيرًا في مسعانا.

- لن أتأخّر عن تلبيتها سيدتي.

- نودُّ منك أن تحملنا على ظهرك لتقصّر علينا تلك المسافة الكبيرة كي نبلغ أبقار أينشتين.

- تريدان الوصول إلى أبقار أينشتين إذن. للأسف لن أستطيع حملكما إلا لعدّة أميال، فجدولي مزدحم جدًا.

- حسنًا، سيكون هذا جيدًا جدًا.

ردّ الحصان متلهفًا، وكأنّه تذكّر شيئًا ما:

- هل يمكننا أن نلعب اللعبة التي طالما لعبناها قديمًا؟

تنهدت السلحفاة ضجرًا، لكنّها رضخت في النهاية:

- حسنًا، ما مجموع ثلاثة واثنين؟

ابتسمَ الحصان ملء فيه، ثم أخذ يضرب بحافره الأرض مرّةً.. اثنتين.. ثلاثًا.. أربعًا.. خمسًا. كان يضرب الأرض ببطء، وبين كل ضربة وأختها، ينظر إليها والابتسامة تعلو وجهه.

قالت السلحفاة:

- أحسنتَ هنز الذكي، هي فعلًا خمسة.

ورسمت على وجهها ابتسامة مصطنعة، ثم قالت للقطّة:

- أعطِهِ أي عملية حسابية، لكن لا تجعلي ناتجها أكبر من خمسة حتى لا نظلّ طيلة النّهار نتابع ضربات حوافره على الأرض.

قالت القطّة:

- حسنًا يا هنز! ما حاصلُ العملية عشرة ناقص سبعة؟

وبنفس الطريقة التي أجابَ بها على المسألة الأولى، ضربَ الأرض بحافره ثلاث مرّات.

سألت القطّة سؤالها بصوت خفيض بعد أن ركبَا على ظهر الحصان بصعوبة كبيرة:

- كيف يمكن هذا؟

ردّت السلحفاة:

- هنز! إنّه هنز.

- لا أعتقد أن هذا يخفى على جاهل حتى، إلا إذا كان أصمّ، لكن من هو هنز؟

- لولا أنّكِ في ضيافتي لأقنعتهُ أنّكِ الفراشة التي تركته، إذن لدهسكِ وأراحكِ من عناء الدنيا، وأراح الدنيا من عنائكِ.

وأضافت:

- هنز! إنّه هنز الذكي، أو من كان ذكيًا، أتعلمين أنّه حقيقي أكثر منّي ومنك، فهو لم يأتِ من فكرة عالِم مجنون، بل له وجود مادّي حقيقي في العالم منذ أن وُلد في بدايات القرن العشرين. صاحبهُ ألماني يدعى فون أوستن. يُسأل هنز: كم مجموع خمسة وسبعة مثلًا، فيضرب الأرض بحافره اثنتا عشرة مرة كما رأيتِ.

ثم صمتت السلحفاة، وكأنّها أنهت ما تحكي، وليس هذا على هوى القطّة التي أرادت بشدّة أن تسمع باقي القصة.

قالت القطة بعد دقائق الصمت:

- ماذا بعد؟

- ماذا بعد ماذا؟

- باقي القصة!

- أيّة قصة؟

- قصة هنز؟

- ومن قال إنّي سأحكيها أصلًا؟

- الكائنات الطبيعية تفعل هذا، عندما يبدؤون قصّة ينهونها.

- إنّ صبري قد بدأ ينفد أيتها الشابّة، فاحذري أن ينفد فعلًا.

- آسفة، ما باقي الحكاية؟

- حيّر أمرُه العلماءَ حينها، وكُوّنت لجان علمية لدراسة الحالة جيّدًا. يجعلون صاحبه يسأله، ويجعلون شخصًا آخر يسأله، ولا تختلف النتيجة، فهو غالبًا يعطي بحوافره النتيجة الصحيحة للعملية.

- وهل يدرك الحيوان الأعداد؟ هل يدرك الأعداد المجرّدة؟

- إدراك الحيوان للأعداد قاصر، فهو يدرك الأشياء التي يعدها، ولا يدرك العدد ذاته إدراكًا مجرّدًا مثل البشر ومثلي ومثلك. حتى إنني لا أدري إن كنتُ أستخدم كلمة إدراك هنا استخدامًا صحيحًا.

- إذن كيف يعرف هنز الأعداد ويجمعها أو يطرحها في رأسه ويخرج بإجابة؟

- هذا ما حاولَ كل أولئك العلماء معرفته حينها.

قالت القطّة بتلهّف:

- وماذا حدثَ بعدها؟!

- سأدعكِ تكتشفين بنفسك.

ثم نادت على هنز:

- هنز.

- نعم سيدتي.

- ما مجموع ثلاثة وستّة؟

فبدأ يضرب الأرض بحوافره واحد، اثنان، ثلاثة ... سبعة، ثمانية، تسعة، عشرة، أحد عشر، اثنا عشر، ثمّ توقّف.

- صحيح يا هنز، أحسنت.

- في خدمتكِ دائمًا سيدتي.

همست القطّة للسلحفاة متعجّبة:

- ما هذا؟

- قولي أنتِ ما هذا؟ إن ذلك هو مفتاح اللغز.

نظرت القطّة أمامها وهمهمت:

- لمّا سألناه ونحنُ في الأسفل أجابَ إجابات صحيحة، وعندما صعدنا على ظهره لم يستطع الإجابة.

قالت السلحفاة بنصف ابتسامة خبيثة، وكأنّها تستمتع بذلك:

- لماذا إذن حدث كلّ هذا؟

سادَ الصمت، لم يقطعه سوى خطوات هنز المنتظمة على أعشاب الغابة والأوراق الجافة المتساقطة من أشجارها، مع بعض أصوات الطيور والحيوانات البعيدة تارة والقريبة تارة. ما زالت القطة تفكّر، لكن لم تصل إلى المفتاح حتى تلك اللحظة، تكاد توقظ السلحفاة كي تسألها عن الإجابة، لكن تتراجع لأنّها تعلم السخرية التي ستصبها السلحفاة الطاعنة في السن على رأسها صبًا.

وبعد أقل من ساعة أخرى، توقّف الحصان، وقال:

- سيدَتيَ، يؤسفني القول إنّني لن أستطيع السير إلى أبعد من هذا؛ إنّ جدول أعمالي مزدحم كما تعلمان.

أيقظت القطّةُ السلحفاة وأنزلهما هنز من فوق ظهره برفق، ولكن قبل أن يتركهما، سألته القطّة وهي مديرة ظهرها نحوه:

- هنز، ما حاصل جمع اثنين وأربعة؟

ففعلَ ما توقّعته، وضربَ على الأرض سبع عشرة ضربة. ثم استدارت نحوه وسألته:

- وماذا عن عشرة ناقص خمسة؟

فضربَ الأرض بحافره خمس مرّات.

شكرته السلحفاة على حمله لهما، وعلى تقصير المسافة الزمنية إلى ستة أيّام، فرحلَ بعد أن أحنى رأسه لهما وقال:

- أستأذنكما سيدتيّ.

قالت القطّة وهما تستعدّان لاستئناف المسير:

- أعتقد أنني قد عرفتُ الحلّ، أو اقتربت منه على الأقلّ، لكنّه حل عجيب لو صحّ.

- وما هو؟

- هذا الحصان... هذا الحصان (ولا أعرفُ كيف أقول هذا وأنا التي تتفاخر بعدم تصديقها للخرافات) يقرأ الأفكار بالنظر إلى عيون السائل، فيعرف الإجابة التي يفكّر بها السائل عندما يلقي سؤاله، فيضرب الأرض بناءً على قراءة العقل، لذلك عندما استدرتُ لم يستطع النظر في

عيني فأجابَ إجابة خاطئة، وكذا الحال عندما سألتِه ونحنُ على ظهره.

- اقتربتِ كثيرًا. هو لا يقرأ الأفكار بل يقرأ تعبيرات الوجه، فهو ينظر إلى السائل بعد كل ضربة يضربها على الأرض، وعندما يصل إلى عدد النقرات الصحيح، تتغير تعبيرات وجه السائل تلقائيًا، فيتعرّف عليها الحصان، فيتوقّف عن الضرب على الأرض، فيخيّل إلينا أنّه يعرف الإجابة الصحيحة.

- عجبًا!

- وما هو أكثر عجبًا أن العلماء استخدموا نفس الطريقة التي استخدمتِها لمعرفة كل ذلك، ثم إنّهم جعلوا أناسًا لا يعرفون الإجابة يُلقون عليه الأسئلة، ولأنّه لم يستطع قراءة تعبيرات مختلفة على وجوههم لمّا وصل إلى العدد الصحيح من النقرات، كان يجيب إجابة خاطئة.

وأضافت:

- المسكين هنز، لمّا علمَ أنّه لا يستطيع فعلًا أن يجري أي عملية حسابية فعلًا، اعترتهُ نوبة من الاكتئاب حتّى جُنّ تمامًا كما ترين، لقد تزوّج في رأسه نصف كائنات الغابة، ذات مرّة تزوّج نملة، وكان يقسم بأغلظ الإيمان أنه يرى أولاده منها وهم يلعبون حوله، وهم أحصنة لكن بأحجام نمل.

- لذلك كنتِ تُشيدين به حتّى عندما أخطأ في الحساب؟

- نعم فعلتُ، فهو لا يستحق المزيد من الأذى.

قالت القطّة بعد دقيقة، والبسمة تعلو وجهها:

- يبدو أنني أذكى مما توقّعتُ.

- يبدو أننا في حاجة إلى أن نغفو قليلًا تحت تلك الشجرة قبل إكمال المسير.

- ألم تنامي نصف يوم على ظهر هنز؟

- لن يضيرهم إذن أن يصبحوا نصف يوم وساعتين.

الخامس

أشرفَ اليوم السادس على الانتهاء، عندما قالت القطّة:

- فكّرت كثيرًا في شرودنجر وزينون، وجدت أنّهما يشتركان في شيء ما.

- غير أنّهما أوجدا كائنين بائسين؟

ضحكت القطّة:

- نعم، شيء آخر.

وصمتت هنيهة، تتصنّع الوقار:

- لو فكّرتِ جيّدًا لوجدتِ أن أفكارهما تشير بوضوح إلى أنّ الطريقة التي نفكّر بها في العالم ليست كما يبدو العالم فعلًا. هناك فجوة ما بين أفكارنا عن العالم والعالم ذاته. شرودنجر مع مجانين الكوانتم أسندوا خصائص غريبة للجسيمات تحت الذرّيّة تخالف مخالفة صريحة حدسنا. وزينون استخدمَ المنطق (ولو بسفسطة) ليوضّح ألا حركة في الكون، وهذا يخالف كل تجاربنا في هذا العالم.

- لم تأتِ بجديد أيتها الشابّة، حواسّنا قاصرة، وتفكيرنا محدود، فلا بد أن تكون نظرتنا إلى العالم هي الأخرى ليست كاملة.

- لكنّي فكّرت: ما المرجع إذن كي نحكم على صحة الأشياء مع محدودية الحواس؟ لمَ لم نولد بقاموس من الأساسيات مخزّن في أدمغتنا يحتكم إليه الجميع، مُتيقنين أنّه غير مخادع؟

- أتعلمين أيتها الشابّة، إنّي لأجد في ذلك متعة عظيمة، الشكّ مسيطر على كل شيء، لا أدري حتى إن كان العالم حولي حقيقيًا، أم مجرّد فكرة في عقلي، هل أنا وأنتِ وهذه الأشجار موجودات حقًا؟ إن في ذلك التساؤل واحتمالات إجاباته لمتعة عظيمة، أنا أمقتُ اليقين مقت أرخميدس للجندي الذي لمسَ دوائره.

- كان هايزنبرج(3) ليسعد بكِ كثيرًا، وربما تبنّاكِ في منزله.

- لن أسألكِ من هو هايزنبرج لأنني مللتُ الحديث فعلًا، ثم إننا وصلنا فعلًا إلى أبقار العمّ أينشتين.

- حقًا؟

- حقًا! انظري إلى ذلك السياج هناك.

نظرت القطة، فإذا بأربع بقرات خلفَ سياج معدني ملاصقات له تمامًا، تتقافزُ على الأرض من دون توقُّف بسبب الكهرباء السارية في السور المعدني الملاصق لها، وهي تسري في أجساد البقر كذلك، حركتُها في القفز متزامنة، فترتفع وتنزل معًا.

قالت السلحفاة، لمّا وجدت القطة قد همّت بالذهاب إلى حيث توجد الأبقار:

- احذري أيتها الحمقاء؛ إنّ هذا السياج فيهِ شيء ما يجعلها تتقافز رغمًا عنها.

قالت القطة من دون أن تلتفت إليها:

- هذا جليّ.

ذهبت القطة إلى الجانب الآخر من السياج كي تكون أقرب إلى البقرات، وتبعتها السلحفاة ببطئها المعهود.

لم تتعجّب بعد أن وصلت الجانب الآخر من السياج، فوجدت الأبقار تقفز واحدة تلو الأخرى فبدت حركاتها مثل موجة، لأنّ هذا هو جوهر حلم أينشتين بالأبقار: مُشاهد من بعيد يرى الحركة بنمط معين، ومشاهد قريب يرى الحركة بنمط آخر، نسبية التزامن، وهو الحلم الذي ربما ساعدَ أينشتين بصورة أو بأخرى على إنجاز النسبية الخاصّة، مثال واضح على أنّ اختلاف المنظور يجعلنا نرى الأحداث رؤى متباينة. الحلم ذاته مستحيل التحقق بهيئته تلك، لكن النقطة المهمّة هي اختلاف الرؤية باختلاف المنظور.

دارَ كل هذا في خلد القطة وهي في طريقها إلى البقرات، ثم اقتربت من البقرة الأولى، وهي على حالها من القفز، والقطة تنظر إليها، فترفع رأسها وتخفضه مع علو البقرة وانخفاضها عن الأرض؛ هذا شيء محفور في جينات القطط، الحركة تجذبها من رأسها وكأنّ حبلاً قد رُبِطَ في رأسها ورُبط إلى الشيء المتحرّك. صرخت القطّة:

- أينَ مصدر الكهرباء لهذا السور، أريد فصله حالاً.

ردّت البقرة وهي على حالها:

- لن تستطيعي ذلك، وُلدنا من حُلم أينشتين على هذه الوضعية، وسنظل هكذا إلى أبد الآبدين.

- وكيف نتحدث إذن ونحنُ على هذه الوضعية؟ تكاد رقبتي أن تنكسر.

- الذنب ليس ذنبنا، فلتُلقِ بلومكِ على أينشتين.

- حسنًا، لن نُلقِ باللوم على أحد هنا، سأسألكِ سؤالًا سريعًا، هل حَلم أينشتين يومًا بآلة زمن.

- مرّات أكثر من أن تُحصى.

- جميل جدًا! وهل أي من تلك الآلات قد انبثقت إلى الواقع معكم؟

- هناك واحدة على بعد ميل ونصف ناحية الجنوب، تركناها قبل أن تطردنا الحيوانات هناك بعد أن قضى أكثر من مائة حيوان بسبب السياج المكهرب.

- شكرًا جزيلًا، أتمنى لك قفزًا أبديًا سعيدًا.

نظرت القطّة حولها باحثة عن السلحفاة، فقد رأتْها تسير خلفها عند اتجاهها نحو البقرات. وجدتها نائمة، لقد سارت خلفها سبعة أمتار بالتمام، ثم غطّت في نوم عميق.

السادس

هذه المرة عرضت السلحفاة على القطّة أن تذهب معها إلى مكان آلة الزمن، لا لشيء إلا لأنّها أرادت أن تثبت للقطّة أنّها وتلك البقرات الأربع مجموعة من «المعاتيه السكارى».

ثم بدأتا المسير.

وبعد صمت دامَ نصف يوم، قالت القطّة فجأة:

- أتعلمين، هناك حركة في الكون، إنّ زينون هذا لمخبول كبير.

- كما قلتُ لكِ من قبل، أثبتي أنّه مخطئ.

- لا بدّ من أن نقبض أوّلاً على مكمَن المشكلة، وهو أنّكِ -ومن قبلكِ زينون- افترضتِ أنّ عمل عدد لا نهائي من الأشياء يتطلّب وقتًا لا نهائيًا.

- صحيح!

- ليس صحيحًا، وسأثبتُ لكِ ذلك.

- من بين العلماء الذين انتقلتُ إليهم بعد أن ماتَ شرودنجر، واحد كان له اهتمام كبير بالرياضيّات، كنتُ أحضر من حين إلى آخر حديثه مع طلّابه عندما يزورونه في منزله. وفي يوم ما شرح لهم شيئًا اسمه المتسلسلات المتقاربة(4) والمتسلسلات المتباعدة(5).

- ما هذا الذي تقولينه؟

- سأشرح لكِ. انظري معي إلى المتسلسة الآتية: ١+٢+٣+٤+... وهكذا، مجموعها يساوي ما لا نهاية، وهذا النوع من المتسلسلات يسمّى «متسلسلة متباعدة» بمعنى أن مجموع حدودها يساوي ما لا نهاية، أما لو كان مجموع الحدود لا يساوي ما لا نهاية، مثل المتسلسلة الآتية: $\frac{١}{٢}+\frac{١}{٤}+\frac{١}{٨}+\frac{١}{١٦}+...$، فإنّ مجموع هذه المتسلسلة يساوي (واحد)، فتسمّى متسلسلة متقاربة. وهذا معناه أن مجموع عدد من الأرقام، وإن كان عددها لا نهائيًا، قد يساوي رقمًا معينًا ومحددًا.

- والمغزى؟

- إن أسقطنا هذا على مجموع الوقت الذي يأخذه (أخيل) لقطع مسافة ما من نقطة إلى نقطة، فتقسيم الوقت ولو إلى عدد لا نهائي من الأقسام سيعطي في النهاية رقمًا معينًا وليكن ثانية أو ثانيتين، وبالتالي سيلحق بالسلحفاة، لأنّه سيتحرك من النقطة التي بدأ منها إلى نقطة ما بعد

السلحفاة في زمن معين ومحدد، ومهما قُسمت المسافة بينه وبين السلحفاة إلى أقسام حتى لو إلى عدد لا نهائي منها، فإنّه سيقطعهُ في زمن محدد، ولن يحتاج زمنًا لا نهائيًا ليصل إلى السلحفاة. وتُدحض فكرة ألّا حركة في الكون التي أورثكِ زينون إياها، كما أورثكِ السفسطة والتلاعب بالمنطق!

صمتت السلحفاة وأسقِط في يدها.

ونامت!

وبعد يومين من المسير، تخللهما بالتأكيد نوم، أو نوم تخلله مسير إن أردنا الدقّة، وصلنا أخيرًا إلى المكان المنشود، وبالفعل وجدنا آلة نصف مدفونة في أرض الغابة. يُخفيها عن الأنظار طول العشب حولها، فأخذت القطّة تحفر حتى كشفت عنها كلها.

قالت السلحفاة ساخرة:

- لم أعرف أن القطط ماهرة في الحفر إلا لإخفاء برازها.

لم ترد القطّة، فقد انشغلت جدًا بمعرفة كيفية عمل تلك الآلة. وبعد قليل من الوقت وجدت الدليل، نعم، دليل تشغيل آلة الزمن.

الآلة بسيطة، مكعّب لا تتعدى أبعاده نصف متر لكل بُعد، متصل بخوذة مطاطيّة بسلك أسود الدليل هو الآخر بسيط، كما وجدته محفورًا على أحد جوانب المكعب: «اجلس على المكعّب، ارتدِ الخوذة، وفكّر في الزمان والمكان وأنت تضغط زر التشغيل الأزرق».

تمتمت: - في أي شيء كنت تفكر قبل أن تنام وتحلم بمثل هذه الآلة يا أينشتين؟!

جلست على المكعّب، وأخذت تنظّف الخوذة المطاطية من الأتربة العالقة بها، ثم حاولت أن تلبسها ونجحت بعد عناء، لأنّها في الأساس مخصصة لرأس بشري.

- حسنًا أيتها السلحفاة الحكيمة، شكرًا على كلّ شيء: إرشادي ومرافقتي إلى البقرات.

- لن تذهبي إلى أي مكان، فهذه الخردة ستقتلكِ، أو ستفعل بكِ مثلما يفعل السياج بالأبقار، أمّا أن تسافر بكِ إلى الماضي، فهذا لم أعهده في ألفين وخمسمائة عام رَتعت فيها على ظهر هذا الكوكب.

- كلام غريب على من لا يدري حتى إن كان العالَم مجرّد فكرة في رأسه.

تراجعت السلحفاة قليلًا، وكأنّ شيئاً من شك بدأ يُصيبها:

- لكن... لكن حتى لو ذهبتِ في الزمن، سأنتظركِ هنا حتى تعودي.

طأطأت القطة رأسها وتنهدت، ثم نظرت إلى السلحفاة مبتسمة نصف ابتسامة:

- للأسف لن أعود... أبدًا.

غالَبت السلحفاة دمعة تريد أن تفرّ من عينيها:

- لماذا؟

- لأنني سأعود إلى الماضي، سأقتل شرودنجر الذي انبثقتُ بسببه إلى هذا العالَم، سأقتله قبل أن يفكّر فيّ، وعندما يموت شرودنجر، فلن أُوجد في هذا العالم، سيُمحى وجودي من ذاكرة الكون ومن ذاكرتكِ. لن تحزني لأنّكِ لن تعرفي أنّنا تقابلنا يومًا ما، بينما سأحقق انتقامي، وأذهب من هذا العالم بغير رجعة، عصفوران بحجر واحد.

تماسكت السلحفاة، وحاولت أن تستعيد حكمتها:

- حسنًا أيتها الشابة، إن كان هذا ما تريدين، فلكِ التوفيق كلّه.

وأضافت بعد ثانية:

- انتظريني هنا دقيقة، لا تذهبي.

استغربت القطّة، لكنّها انتظرت حتى جاءت السلحفاة حاملة وريقات جافّة يبدو أنّها تساقطت من شجرة ما. قدّمتها إلى القطة:

- هذه الوريقات سمّ لم ينجُ منه كائن حيّ نزلَ إلى جوفه منها أكثر من واحدة، هي هديّتي لكِ، اقتلي بها ذلك المجرم الذي جعلكِ تعانين كل تلك المعاناة. ورقة واحدة تصيبه بجنون لا براء منه، ورقتان ترسلانه ليقابل صديقًا جديدًا اسمه الموت.

استشعرت القطّة بعض الغرابة وهي تقول للسلحفاة:

- شكرًا لكِ.

تحسست القطّة الزرّ الأزرق، نظرت إلى السلحفاة قليلًا، وحاولت الابتسام، ثم أغمضت عينيها وضغطت.

السابع

تشوشت القطة بعض الشيء إثر الرحلة الزمنية، لكنّها تماسكت تدريجيًا حتى أدركت ما حولها. تأمّلت البيئة المحيطة، فعرفت أنّها نجحت في مسعاها فعلاً؛ ها هي الآن في جامعة فيينا، عام ١٩٠٧ قبل أن تخرج من عقل شرودنجر إلى الوجود بنحو ثمانية عشر عامًا.

تسللت إلى مبنى الأساتذة، وبدأت تبحث عن مكتب «فرانز إكسنر»(6)، تعلم أنّ علاقة ما تربط شرودنجر بهذا الفيزيائي، فقد سمعت شرودنجر أكثر من مرة يذكر ذلك، وعزمت على أن تبقى في هذا المكتب حتى تأتي فريستها.

استمرّت في بحثها، فوجدت أيضًا مكتبًا مكتوبٌ على بابه «فريدريك هايزنبور»(7)، فتذكّرت توًا أنّ شرودنجر ذكرهُ كثيرًا هو الآخر، فقررت أن تتجوّل بين المكتبين -بعد أن تعثر على مكتب إكسنر- لتزيد من فرص عثورها على شرودنجر.

فكّرت، وهي تبحث عن المكتب، في الأسباب التي جعلتها تختار هذا الزمان وهذا المكان بالذات للانتقام. لم تُرد أن تعود إلى طفولته، لأنّها تعلم أن قلبها الطّيب سيمنعها من قتل طفل، والقلب الطيب نفسه منعها من قتله في منزله أمام والديه. الآن هو في العشرين من عمره بعيدًا عن والديه، في محراب الفيزياء الذي دفعه ليوجِدَها في هذا العالم التعس، هكذا يكون الانتقام.

مرّت أربعة أيّام منذ أن وجدت مكتب فرانز إكسنر فعلًا، ومن ساعتها، وهي دائمة التجوّل بين المكتبين بُغيَةً أن تجد الفيزيائي الشاب.

وفي الواحدة بعد ظهر اليوم الخامس، لمحت طيفه داخلًا مكتب هايزنبور، فانطلقت إثره من دون أن يلاحظها هو أو العالِم الذي انتظرهُ في الداخل. دخلت المكتب واختفت خلف كرسي، ثم بدأ صوتهما يتهادى إلى أذنيها. قال فرانز:

- أوشك الشاي أن يبرد.

- معذرة سيد فرانز، لقد اندمجت في تجربة، وكدتُ أن أنسى موعدنا.

- لا بأس.

خرجت القطّة إلى الممر الذي تتراصف غُرف المكاتب على جانبيه. وفحصته سريعًا، فوجدت بعض اللوحات معلّقة على الجدران، فاختارت أقربها إلى مكتب فرانز، قفزت ناحيتها، وتشبثت بها، وأخذت تقضم الخيط الذي يثبتها إلى مسمار. ومع قليل من المجهود، وتحت تأثير وزنها،

انقطع الخيط وسقطت اللوحة الكبيرة على الأرض، تهشّم زجاجها، وأسمَع صوتُها كل من في الممر.

ابتعدت قليلًا، وحدثَ ما توقعته، فقد خرجا ليتفقدا ما حدث. دخلت المكتب بسرعة، وضعت ورقة سامّة في كوب الشاي الخاص بشرودنجر، ثم أتبعتها بورقة أخرى، بعد ثلاث ثوان من التفكير حول إذاقته عذاب الجنون ما تبقّى له من حياته، لكنّها وجدت في النهاية أن هذا أقسى من اللازم. اختبأت قبل أن يعودا.

جاءا، وجلسا يكملان حديثهما، ولحظة جلوسهما تحديدًا، انقبضَ قلبها، سيشرب الشاي، لن يفكّر فيها، ستذهب من الدنيا بلا ذكرى، هل تدفعُ وجودها ثمنَ انتقام؟ لكنّها عادت وفكّرت: لم يكن هذا العالم يلائمني على أيّة حال، ربما نسخة مني في عالم آخر قد وجدت نفسها هناك.

رفعَ شرودنجر الكوب إلى فيه، ابتلعت القطة ريقها، ثم تنهّدت. رشفَ من الشاي مرّة، ثم أخرى، ثم ثالثة، علمَ أنّ مذاقه غريب، لكن الأوان قد فات، وقفَ فجأة، ثم انهارَ على الأرض بعد ثانية. آخر ما رأته القطة كان فرانز وهو ينحني على تلميذه: إروِن...

ثم تلاشى الوجود.

الثامن

مضت سبعة أشهر منذ أن اختفى الفيلسوف الشبراويّ، وما زال صاحبنا يبحث عن أي شيء عن ذلك الـ «إروِن شرودنجر» في كتب تاريخ العلوم في تلك الفترة وغيرها، لكنّه لم يجد شيئًا، حتى استقرّ في نفسه أخيرًا أنّ ذلك الرجل ذا اللحية كذّاب أو مجنون، فعادَ إلى شقته بعد يوم شاق من البحث والقراءة.

لم يكد يغلق الباب خلفهُ، حتى جاءه صوت والدته القادم من المطبخ: «شرّفت يا اخويا».

دخلَ غرفته، أغلقَ على نفسه الباب، ونامَ يحلم بلوكاس، الفيلسوف النمساوي الشبراوي الذي تلاشى من الوجود دون سابق إنذار.

**

قبضَ على ذقنه الكثّة وهو ينظر إلى النيل، النسيم عليل يداعب شعره الأشعث، يفكّر في ذاكرته المشوّشة التي أوشكت أن تُفشي سر مسعاه مع ذلك الشاب المصري: «عالَم آخر ليس به شرودنجر، ماذا حدثَ له كي يُمحى من ذاكرة العالم هنا؟».

كادت اختباراته الإحصائية لرسالة الدكتوراة أن تنتهي، وبدأ يحلم بيوم المُناقشة، سيحمل درجة الدكتوراه أخيرًا، وفي حقل نادر، نادر بحق، وعنوان دراسة سيرسّخ اسمه عالمًا من علماء الصف الأوّل في بلده على الأقلّ: «دراسة إحصائيّة حول وجود/عدم وجود إروِن شرودنجر في العوالم المتوازية من النوع الرابع».

سيفتقد كثيرًا تلك «الشيشة» المصرية!

**

في قلب غابة لا يُعلم موقعها، نجد سلحفاة نائمة منذ يومين، فتحت عينيها، فوجدت ثعبانًا ينظر إليها:

- مرحبًا سيدتي السلحفاة.

فتحت عينيها بتثاقل:

- مرحبًا أيها الشاب.

تثاءبت:

- أنت جديد في هذه الأنحاء، لم أرك هنا منذ وجودي، وهو زمن لو تعلم طويل.

- أنا جديد هنا فعلًا، أنا...

وقبل أن يكمل، التفّ حول نفسه بحركة غريبة وعضّ ذيله.

- معذرة سيدتي، هي حركة لا إرادية تحدث لي منذ أن خرجت من الحلم، حلم «كيكوليه»(8) مكتشف بنية البنزين.

مراجع:

١- برتراند رسل، حكمة الغرب (الجزء الأوّل)، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٦٢، ترجمة: د. فؤاد زكريا، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، ١٩٨٣

٢- جيمس تريفل، هل نحن بلا نظير، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٣٢٣، ترجمة: ليلى الموسوي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، ٢٠٠٦

٣- رويستون إم روبرتس، السرنديبية: اكتشافات علمية وليدة الصدفة، ترجمة: مصطفى محمد فؤاد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٥

4- Donald Goldsmith, Michael Shara, E = Einstein: His Life, His Thought, and His Influence on Our Culture, Sterling Publishing, New York, 2006

5- Brian Palmer, What Is the Answer to Zeno's Paradox?, Slate.com, March 05, 2014

ومضات القمر

الأول

الخلوة حُلوة، عشقَ عبد الرحمن -الرجل الأربعيني- حلاوتها من صباه، فمضى ينفق الساعات وحيدًا، بعيدًا عن أعين الناس، فاعتادت حواسه الهدوء، وأصبحَ وجوده بين الناس عبئًا كبيرًا يجثم على صدره ويلوّث مخيلته.

جلسَ على صخرته الكبيرة في تلك الليلة الصيفية المقمرة، بعيدًا عن أقرب إنسان حي بمسيرة ساعة، صخرته التي أضحت ملجأه الصيفي، عليها ينقّي مخيلته الملوثة باختلاطه مع الناس، ينظر إلى السماء حينًا وإلى تضاريس الصحراء الممتدة أمامه حينًا.

يتوه أحيانًا في السماء التي أضحت عالمه، فيشد براحُها بصرَه، ويخطف سوادُها المزيَّن بالأجرام قلبَه.

اتساع السماء المهيب ولّد لديه شعورًا بحتميّة وجود أحدهم في الأعلى، كل نظرة إلى نجم أو كوكب عززت لديه هذا الشعور، سيكون من غير المنطقي تمامًا أن يُخلق كل هذا الاتساع الذي لا يحيط به عقل، من أجل كائن عاقل واحد.

لدى عبد الرحمن حظٌ من علوم الفلك، فهو يعرف أسماء بعض النجوم ويصادقها كذلك، وفي ليلة مثل تلك الليلة بقمرها البدر، انصبَّ جلُّ تركيزه على ذلك الجرَم المهيب، يحاول أن يستنبط أنماطًا من الأشكال على سطح القمر، ويقفز ببصره بين مناطق النور والظلام المُكوِّنين لتلك الأنماط.

يعرف أنّ عقله يخادعه، وأن صورة الرجل على القمر ليست لشخص ارتكبَ جرم فعوقبَ بأن سُجن هناك كما قالَ بعضهم، ويعرف كذلك أنّه لا يوجد أرنب ضخم على سطحه كما قد يتوهم آخرون، لكن ما الضير في أن يستسلم لبعض الوهم اللذيذ؟

لا يعرف كيفَ يكره الناس حوله تلك المعارف، حتى إنّه وُبِّخ كثيرًا لما كان شابًا يجمع كتبًا من هنا وهناك مما نجا من المعرفة البشرية. «كيف تحتفظ بهذا الرجس وتجمعه؟»

ابتسمَ عندما تذكّر شجاره مع ذلك التاجر حول المعادلات ورموزها السحرية، وكيف حاولَ أن يُقنعه أنّ تلك المعادلات تستطيع التنبؤ بحركة الأجسام في السماء، ساعتها لم يكد صاحبنا التاجر أن يسمع كلمة «يتنبأ» حتى ثارت ثائرته، وجالَ بين الناس يقول إن عبد الرحمن يستخدم رموزًا لها علاقة بالسحر، بل ويحاول أن يفعل فعلَ الله في معرفة الغيب.

ومن حينها، لم يعد عبد الرحمن يتحدث في أمور الفلك والرياضيات إلا مع مَن يثق بهم، وهم قليلون جدًا، بل أخفى ما جمعهُ من الكتب -أو أجزاء الكتب- القديمة في حفرة حفرَها في منزله، وصنعَ لها بابًا خشبيًا علويًا. ووضعَ عليه خَشِيَّته التي ينام عليها.

عادَ بأفكاره إلى قرص القمر المهيب أمامه.

مرت الساعات تجرُ الساعات حتى أوغلَ الليل، فأقامهُ بركعتين، ثم هبّت نسمات باردة منعشة، استقبلها وهو مستلقٍ على ظهره، ووجهه إلى السماء، فأغمضَ عينيه كي يستقبل مداعبات الهواء على وجهه بمزيد من التمعن، نسمة وراء أختها، وعينان مقفلتان يفتحهما بين الواحدة والأخرى، وكأنه يُلحُ على النسمة التالية أن تأتي لتداعب جبهته، حتى ومضَ الضوء الأحمر على سطح القمر.

رآه عبد الرحمن فانتفضَ قاعدًا، بعقل ملؤه الشك، وبعينين منتبهتين، تَعلّق بصره بقرص القمر وتساءلَ: هل تلك الومضة الحمراء حقيقية؟ هل أغرقُ في الوهم حتى أغرقه؟

ومضَ ذلك الضوء الأحمر أقصى شمال قرص القمر وقتًا لا يتعدى ثوانيَ، انتظرَ محاولًا رصد أي حدث مشابه، لكنّه مدة ليلة كاملة، أتبعَها بثلاثة شهور، لم يرصد أي ضوء مثل ما رآه في تلك الليلة، ثلاثة شهور لم ينزل بصره عن السماء ليلًا، وإن لم يكن القمر مكتملاً، حتى تأكّد في النهاية أنّ ما رآه لم يتعدَّ وهمًا من أوهامه القديمة.

تناسى عبد الرحمن ما حدثَ مع مرور الوقت، وعادَ رويدًا رويدًا إلى عاداته القديمة، تداعبهُ ذاكرته من حين إلى حين، فتعيدهُ إلى يوم أن رأى القمر يومض.

مرّت عشرة أشهر قمرية، فعادَ القمر بدرًا، وعلى نفس عادته أراحَ عبد الرحمن ظهره على الأرض، وبصرهُ متعلق بالسماء. دقَّ الحدثُ القديم باب وعيه مجددًا، لكنّه كان حقيقيًا تلك المرة، كاد يقسم لنفسه أنّه رأى نفس الومضة مرة أخرى وفي نفس المكان تقريبًا على سطح القمر، تكررت الومضات واحدة فواحدة وفي أماكن متقاربة، فنزلت على قلبه كما ينهمر المطر على أرض جدباء اشتاقت كثيرًا لقطرات الماء.

ثبّت الرجل تلك المواقع في عقله بغراء التركيز الحاد، وانتظرَ إلى أن جاء الفجر، ثم ذهبَ إلى بيته مُسرعًا. تناولَ قطعة جلد صفراء ورسمَ عليها دائرة كبيرة تمثل القمر، وداخلها وضعَ نقاطًا تمثل نقاط الومضات الحمراء، وهنا سمعَ خطوات طفل، فعرف أنّ ابنه عُمَر قد استيقظ.

دخلَ عليه الطفل ذو الأربع سنوات، فوجدَ أباهُ يُمسك اللوحة المُوَقّع عليها مواضع الومضات.

حاولَ الطفل أن يمسكها فأبعدَها الأب برفق ومسحَ على رأسه، ثم أخذ يداعبه حتى استسلمَ لنوم عميق في حجر والده.

تناولَ عبد الرحمن اللوحة مجددًا، ونظرَ إليها بتمعن، ثم نظر إلى الصغير النائم، وفكّر في أنه من الجميل أن يأخذ ابنه معه في تلك الخلوات من وقت إلى آخر.

وفي خمسين سنة تالية، زادت النقاط على لوحة القمر إلى أكثر من مائة نقطة رسمَ عُمَر أكثرها بعد أن مات والدهُ الذي ألقمهُ حب القمر وومضاته الحمراء قبل أن يقضي.

الثاني

بعد الحرب بأكثر من ثلاثمائة عام.

أمسك مُحمد اللوحة وأخذ يتفحصها على ضوء شمعة متراقص. لم يجد معنى في أن تمثل تلك الرقعة الجلدية إرثًا سِريًا لعائلتهم، بداية من جدِّه عبد الرحمن مرورًا بوالده عمر حتى وصلته.

عملَ بوصية والده وجدِّه، أن يُراقب السماء، وإن وجدَ في ذلك بعض المتعة. وها قد انقضى من عمره ستة وخمسون عامًا، منها سبعة وعشرون يراقب خلالها السماء وحده بعد وفاة والده، لكنّه لم يُضف ولو نقطة واحدة بعد وفاة والده إلى تلك اللوحة الكبيرة، لأنه ببساطة لم يرصد أيّ شيء.

تمنّى كثيرًا أن يتحلى بالإيمان الذي تحلّى به جده وأبوه بوجود معنى ما لتلك الومضات الحمراء، لكن غلبَ الشك على أمره.

قرأ هوامش اللوحة التي قرأها من قبل عشرات المرات، حول احتمال أن تكون تلك الومضات نوعًا من محاولات التواصل من قِبل حياة عُلوية، وتعليمات حول أوقات الرصد المناسبة التي حدثت فيها المشاهدات السابقة، وغيرها من التعليمات.

ساءلَ محمد نفسه: لو وُجدت حياة باقية على الأرض بخلاف بلدته، هل منهم مَن شاهد تلك الومضات وسجّلها كما فعلَ جدّه وأبوه؟ لا سبيل إلى معرفة ذلك مع الحصار الإشعاعي المفروض عليهم منذ قرون، فلا يوجد أي طريق للتواصل مع ناجين خارج نطاقهم، هذا إن وُجدوا أساسًا.

حاولَ أن يستنبط أي شكل مألوف من تلك النقاط كما يفعل دائمًا، لكن لا جديد، وصّل النقاط بناءً على تاريخ رصدها لتخرج له مجموعة خطوط مستقيمة مائلة بعضها على بعض، وليس لها أي معنى.

استمرت تساؤلاته: إن وُجدت كائنات من نوع ما تعيش هناك، وتحاول توصيل رسالة إلى حضارة أخرى بلغة ما، أي لغة سيختارون؟ فهو يعلم من أبيهِ أنّ اللغة التي يتحدّثون بها لم تكن الوحيدة على الأرض في وقت ما. نحن لا نعرف كيف هي نظرتهم إلى الحياة؟ كيف يفكرون؟ كيف يتواصلون مع بعضهم حتى؟ ثم مَن يضمن أنّ المُسجل على اللوحة يمثل كل الومضات التي حدثت منذ أن رآها جدّه أوّل مرة؟ أليس هناك احتمال حدوث سهو أو وجود نقاط لم

يرصدها جدّه أو والده؟

زيّن البدر السماء في تلك الليلة، وعلى نفس الصخرة التي جلسَ جدُّه عليها، جلس الحفيد يتأمّل السماء وقمرها، يقفز بين الأجرام بعينيه، وعلى الرغم من كل الشك الذي يحمله حول وجود أحد ما في الأعلى، فهيبة السماء واتساعها الهائل ظلّا يغالبان ذلك الشك ويصارعانه، وكأنّ شكل السماء وتوزيع النجوم عليها يلمس في عقولنا شيئًا مزروعًا فيها، وهوَ أنّ هناك رفاقًا كونيين من نوع ما.

دارَ الصراع في عقل محمد، وهو ينظر إلى القمر الذي أسرَ جدّه ووالده، وقدّر الله أن يرى ما رآه سَلَفاه في تلك اللحظات التي داعبَت فيها ذكراهما فكرَه.

تركته أوّل ومضة حمراء مبهوتًا، لم يفعل شيئًا، بل تسمّر في مكانه كالصخرة التي جلس عليها، وأخذ عقله لحظات ليستوعب ما حدث.

هدأ، وبدأ يدرك فعلاً ما رآه، وهنا باغتهُ القمر بومضة أخرى، فثالثة، فرابعة، حتى وصلوا إلى ستّ ومضات مثلها جميعًا بصخور صغيرة على الأرض في قلب دائرة رسمها بعصاة، حتى لا ينسى مواضعها النسبية، وعند الفجر عاد إلى منزله، أخذ اللوحة وحاولَ وضع النقاط عليها، لكنه لم يُفلح، لعدم قدرته على تحديد المواضع النسبية بين النقاط الموجودة سلفًا والنقاطِ الجديدة بدقة، فجاءَ برقعة جلد جديدة، رسم عليها دائرة القمر، وداخلها النقاط الستّ التي رصدها اليوم، وفترة مكوث كل ومضة تقريبًا.

لم يستطع أن ينام بسهولة، لكنّه عندما فعل، نفَت أحلامه أن أبنية شكّه قد هُدِمت بزلزال الومضات التي رآها.

في أثناء الأشهر الخمسة التالية، وفي ليلة اكتمال البدر من كل شهر، رصدَ ومضات أخرى على القمر، أربع ومضات، ثم ست ثم خمس ثم ثمانٍ ثم ست.

ثم صمتت السماء، وانقطعت الومضات، وتلك المرة دامَ الانقطاع إلى الأبد؛ لم يرها محمد ولم يرها بشري بعده.

الثالث

حاولَ محمد في الأيّام والأشهر التالية أن يستنبط معنى الومضات الجديدة، وضعَ نقاطه على نقاط والده وجدّه وجرّب أن يغيّر مواقعها النسبية من مكان إلى آخر، وصَلَ خطوطًا فرسمَ أشكالًا ليس لها أي معنى. المشكلة الكبيرة هنا أنه لا يعرف عن ماذا يبحث، شكل؟ عدد؟ لغة؟

بعد أربعة أشهر من التفكير والمحاولات، ومضت في عقله فكرة، ربما إن أرادوا (أيًا كان اسمهم أو صفتهم) أن يرسلوا رسالة، لأرسلوها متتالية، لماذا يحتاجون ذلك الفراغ الكبير من السنوات منذ آخر ومضة رصدها والده؟ ربما هما رسالتان مختلفتان، وربما معرفة الأخيرة مفتاح لمعرفة الأولى، أو العكس، ربما.

وضعَ أمامه لوحته بنقاطها. أوحى له ترتيب ظهور الومضات أن الرسالة إن تضمنت لغة ما، ستكون من تلك اللغات المكتوبة من اليسار إلى اليمين، ولسوء الحظ، وحتى إن مثلت تلك النقاط كلمات لغة بشرية (مع صعوبة ذلك) فهو لا يعرف سوى لغة واحدة وهي لغته وتُكتب من اليمين إلى اليسار، ولولا بعض الحكايات المنتشرة حول وجود لغات انتشرت قديمًا تُكتب من اليسار إلى اليمين لما صدّق أساسًا أن الإنسان يمكنه أن يعبّر كتابة عن أي شيء من اليسار إلى اليمين. لم يرتح عقله لتلك الفكرة.

وفي كل الأحوال بدت كل الطرق أمامه مسدودة، فبحسب علمه لا يعرف أحد سكان بلدته لغة غير العربية ومشتقاتها، قرآنهم عربي، وكل نسخة من كل مكتوب يعرفه أهل البلدة عربي، فقد اندثرَ كل ما عدا ذلك من اللغات.

في ليلة أخرى مقمرة، حملَ رقعته الجديدة التي وقّع عليها ومضاته، وذهبَ إلى خُلوته، ونظرَ في السماء، ناشدًا فكرة ما قد تحلُّ معضلته. أبعدَ نظره عن القمر، وجاسَ بين النجوم. أخذه التفكير من جديد، هل من معنى لكل ذلك؟

تومضُ النجوم هي الأخرى فيخفت ضوءها ويشتد منذ أن خُلقت، ولم يقل أحد إنّ شيئًا يسكنها ويجعلها تُومض.

نجوم تومض، نجوم تومض، بحثَ عن إحداها في السماء، فوجدَ واحدة ناحية الشمال الشرقي دون عناء، تلمع وتخفت كل عدّة ثوان.

«ثوانٍ؟!»، هبَّ من رقدته، نشرَ الرقعة أمامه، وبدأ ينظر إلى النقاط التي وقّعها عليها، ثم تمعّن في الأرقام التي وضعها تحت كل نقطة تعبيرًا عن عدد الثواني التي ومضتها الومضات.

وجدَ أنّه يستطيع بسهولة أن يقسم تلك الأرقام إلى مجموعتين: واحدة تشمل خمس وست ثوانٍ، وأخرى تشمل تسع وعشر ثوانٍ. لماذا هذا التفاوت الكبير بين المجموعتين؟ لماذا ليس هناك طيفٌ واسعٌ من الأرقام: ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ...؟

الأعداد! هي الأعداد، الشيء المشترك بين أي أجناس عاقلة، إن وجدتْ. لكن يظل السؤال: لماذا مجموعتان متفاوتتان من الأعداد؟ شدّهُ هذا إلى احتمال ما! ماذا إن حوَت كل مجموعة في الحقيقة عددًا واحدًا فحسب؟ لقد بدأ يتذكّر الآن عدّة الثواني. لم يملك أي أداة قياس وقتها سوى عقله، كيف فرّقَ عقله بين الخمس ثوانٍ والست، وبين التسع ثوانٍ والعشر، ربما في الحقيقة مجموعة الخمس والست ثوانٍ كلها خمس، أو كلّها ستّ؟ وكذلك المجموعة الثانية، كلها تسع أو كلها عشر.

إذن، ربما لا معنى في الأساس لمواضع الومضات، بل المدّة التي استمرّتها. «ليتَ أبي وجدّي هنا الآن ليشاركاني هذا».

ملأت السعادة قلبه، ليس للاكتشاف ذاته، بل لأنّه وجدَ معنى لكل هذا، أو زادت احتمالية وجود معنى لكل هذا. ويا لسعادة الإنسان إن وجدَ لسعيِه معنى!

عادَ إلى منزله، وأحضرَ رقعة جديدة. بدأ يستخلص الأرقام من لوحته المدوّن عليها، وينقلها إلى اللوحة الجديدة، رتّب الأرقام من اليمين إلى اليسار بحسب الأسبقية الزمنية لظهورها، آخذًا في الحسبان كل الاحتمالات الممكنة المنبثقة عن مجموعتي الأعداد. في البداية افترضَ أنّ المجموعة الأولى كلها خمس، والثانية كلها تسع، ورتّبَ الأرقام في سطر طويل على هذا الأساس، ثم سطر آخر، يفترض فيه أنّ الأولى كلها ست، والثانية كلها عشر... وأكملَ كل الاحتمالات التي تُمثّل فيها كل مجموعة برقم واحد، فكانت أربعة أسطر.

بدأ بعدَ ذلك يضع الاحتمالات الأخرى التي تُمثّل فيها المجموعة برقم والأخرى برقمين، فخرج بأربعة احتمالات أخرى.

وفي النهاية وضعَ سطرًا تاسعًا يكتب فيه الأرقام كما دوّنها بالضبط في رقعته الأخرى من دون افتراض أنّه أخطأ في العد.

وهو بذلك أهملَ -عن علم- عددًا كبيرًا من الاحتمالات الأخرى التي قد تنتج عن أخطاء القياس، ربما مثلًا في السطر الذي افترضَ فيه أنّ المجموعة الأولى تمثل بخمس والثانية بعشر، فقد أخطأ مرة أو مرتين وحسبَ الستّ خمسًا. ستولّد كل هذه الاحتمالات عددًا هائلًا من الأسطر لن يستطيع معالجته. آثرَ التركيز على الاحتمالات التسعة الأولى.

بعد تفكير، أضافَ إليها تسعة احتمالات أخرى تُعبر عن نفس الاحتمالات، لكن لو كُتبت من اليسار إلى اليمين.

اكتظت اللوحة، بثمانية عشر سطرًا من الأرقام، سطر واحد فقط ربما يعبر عن شيء لا يعرفه، ما السطر؟ وعن أي شيء يعبر؟ هذا هو السؤال الآن.

الرابع

حاولَ البحث في ذاكرته عن شخص ما في محيط معارفه قد يكون على دراية بالأرقام، لكنّه تذكّر أن عائلتهم ربما هي الأعلم بين كل من يعرف. ثم هدتْهُ ذاكرته إلى بعض الكتب -أو أجزاء من الكتب- التي تركها جدّه في ذلك المخبأ تحت منزلهم بسبب تحفّظات أهل القرية. لم يطّلع مُحمّد عليها منذ أن رآها مع والده عندما أوصاه ألّا يفرط فيها.

فتحَ المخبأ، وأخرجَ ما فيه، وبدأ يقرأ من هنا وهناك، تذكّر في أثناء قراءته الإلحاح الذي ألحّه أبوه كي يتعلّم القراءة والكتابة، لم يدرِ حينها لأي شيء سيستخدم ما يتعلّمه، فالآلاف مثله يعيشون حياتهم ويكسبون عيشهم من دون عناء تعلّم القراءة والكتابة. حتى القرآن، يمكنه أن يحفظه ويتلوه من دون حاجته إلى معرفة القراءة. لكن والده لمسَ فيه ذكاءً قويًا وذاكرة حديدية، فحاولَ أن يورثه بعض المعارف الرياضيّة والفلكية التي لا بدّ لإتقانها من تعلم القراءة والكتابة، فشرِبَ منها ولكن على مضض.

عمومًا، وجدَ أخيرًا فائدة لكل الأيّام التي قضاها في تعلّم الرياضيات والفلك مع والده، وقبلها القراءة والكتابة مع مُحفّظ القرآن بعد جلسات التحفيظ.

عثرَ على مقال في إحدى الكتب يتناول لغة قديمة تُكتب من اليسار إلى اليمين، اسمها الإنجليزيّة، نقل حروفها إلى رقعة خارجية، وحاولَ أن يتخيّل كيف للعقل أن يُتقنها، فعجز.

بعد أن مرَّ على الكتب مرورًا سريعًا، اصطفى الكتب التي يبدو أنّها تتناول الأرقام، ووجدها أربعة، وبدأ ينقّب فيها عمّا قد يساعده على فهم تلك السلاسل الطويلة من الأرقام.

مرَّ شهر وهو يبحث في كومة الكتب التي أخرجها، لم يهتدِ إلى أي شيء، حتى إنّه وجدَ بعض الأجزاء تتحدّث عن الشفرات ومفهومها وكيفية التعامل معها، لكنّه لم يكوّن وجهة نظر معتبرة حول سلاسله.

انتقلَ بعد ذلك إلى الكتب الأخرى، وحاولَ التنقيب عن أي مفاتيح، وفي ذلك أمضى ما يربو على شهر آخر، حتى وقعَ على صفحة أثارت اهتمامه.

تحدّثت الصفحة عن شفرة اسمها شفرة «نجم/قمر»، يُرمز فيها إلى الكلام برمزين فقط: النقطة (.) التي هي نجم، والدائرة (٥) التي هي قمر، حرف (أ) مثلًا يرمز له بـ (.٥)، نجم قمر، والباء (٥...) قمر نجم نجم نجم، وهكذا.

فكّر: ربما استخدمَ الغُلويون نفس المبدأ في التواصل مع البشر، لكنّ ذلك يقتضي أمرين:

أولهما أنّ الغلويين على علم بلغة البشر، لأنّ هذه الرموز من المفترض أن تتحول إلى كلمات بشرية مفهومة. هل تواصلَ أولئك الغلويون مع البشر من قبل؟ وعرفوا لغتهم؟ وثانيهما أنّ عدد الأسطر سيتقلّص لأنّه إن استخدمَ الغلويون نفس المبدأ في التواصل فسيحتاجون إلى رمزين فقط، أي إلى رقمين فقط، وعندها ستمثل أرقام المجموعة الأولى كلها برقم، والثانية برقم، المجموعة الأولى يُعبّر عنها مثلًا بالرمز (نجم) والثانية يُعبر عنها بالرمز (قمر)، أو العكس.

ومع ذلك ستبقى مشكلة كبيرة، أن الرسالة لا بدّ من أن تُرسل بالعربية كي يفهمها، لأنّه على الرغم من وجود مفتاح للإنجليزية في الورقة التي يدرسها، فإنّهُ لا يعلم، ولا أحد يعلم معنى الحروف الإنجليزية وكلماتها أساسًا. فإن كُتبت الرسالة بالإنجليزية، فسيأخذ الرموز الإنجليزية المقابلة لكل مجموعة أرقام من الشفرة، وسيخرج لديه سطر طويل من الحروف الإنجليزية ليس لها معنى بالنسبة إليه أو لأيّ أحد ممّن يعرف.

إذن لا يملك إلا سطرين من الأرقام –أو الرموز-، سيبدأ محاولته بأن يعبّر عن كل رقم من المجموعة الأولى بـ (نجم .)، والثانية بـ (قمر ٥). ثم بدأ يستبدل الحرف الموجود في الصفحة المفتاحيّة بمجموعة الرموز التي تقابله، فحصلَ على سطر طويل من الأحرف العربية، لم يحاول تبيُّن معناه بعد.

ثم عكسَ الرمز لكل مجموعة، فعبّر عن كل رقم من المجموعة الأولى بـ (قمر ٥) والثانية (نجم .)، وفعلَ ما فعله مع السطر الأوّل.

حصلَ في النهاية على سطرين من الحروف العربية، لكن لم يجد لأيّ منهما معنى. جلسَ ساعات يحاول أن يُقسّم مجموعات الحروف إلى كلمات، لكنّه لم يخرج بشيء مفهوم.

استخدمَ المفتاح الإنجليزي للشفرات، مع تغيير اتجاه وضع الأرقام ليناسب طريقة الكتابة الإنجليزية، ومع علمه أنّه لن يستطيع فهم شيء، حتى لو عبّرت الجملة عن شيء.

أربعة أسطر، يستوي فيها العربي مع الإنجليزي، لا يفهم منها كلمة واحدة.

ساءَل نفسهُ: هل طريق الشفرة من أوّله خطأ؟ الثواني والاحتمالات والسطور والأرقام، كل ذلك لا شيء؟

أعادَ الكتب إلى مكمنها، وأخذَ كل الرّقع التي استخدمها هو وأبوه وجدّه ثم ذهبَ إلى خُلوته.

نظر مليّا إلى القمر الأحدب وقتها، ثم بدأ ينقّل بصره بين الرقع والأحدب.

لماذا كل هذا الإيمان بوجود رسالة ما؟ جدّي وأبي ثم أنا، هل لأنّ الومضات طارئة لم يسمع

عنها أحد قبلنا؟ ما أدرانا؟ ربما هي حوادث طبيعية حدثت ملايين المرات في تاريخ البشر الذي اندثرَ جلّه؟ كيف تسلّل هذا الإيمان إلى قلب جدّي وأبي ثم تسلّل إليّ؟ ما كل هذا إلا وهمٌ أذكيناه بعمل، ثم أذكى العمل الوهم، وكلما بذلنا جهدًا ازدادَ يقيننا بالوهم، إذ إن فكرة عدم وجود معنى لكل هذا تؤلم أكثر من ألم الجهد المبذول فيه، وكأنَّ المجهود الذي نصرفهُ في شيء دليل على صحته.

«لا شيء هناك، لا رسالة، لا غلويين».

لم يدرِ أنَّ لسانه قد سرقَ الجملة الأخيرة من عقله، فأجريت عليه مسموعة: «لا شيء هناك، لا رسالة، لا غلويين».

نظرَ إلى الرُّقع بغضب، إرث عائلتهم الذي دوّنوه عقودًا طويلة. أمسك واحدة بقوة، وبدأ يُمزّق. ثم أتبعها بثانية وثالثة حتى انتهى منها جميعًا.

بدأت رياح خفيفة تهب، ثم اشتدّت مع الوقت، فطارت قِطَعُه هنا وهناك. نظرَ إليها ولم يحرك ساكنًا، بل استجدى الرياح أن تشتد، فلا يرى من تلك القطع شيئًا بعد اليوم.

لم ينتظر إلى الفجر، بل قامَ وسارَ عائدًا إلى منزله وفي رأسه تُمزّق رُقع الومضات وتتطاير، لتُلقيَ من فوق صدره حملًا ثقيلًا.

لم يبتعد كثيرًا عن الصخرة عندما داست قدمه على مجموعة من القطع، لم يكترث حتى عندما رآها، فسارَ مبتعدًا، تاركًا حمل الماضي يتبعثر.

من القطع التي داسها، واحدة ذات حواف ممزقة، الرسم عليها باهت، لكنك تستطيع أن تتبين بسهولة عدة رموز، مثلت حروفًا في لغة قديمة اسمها الإنجليزية، كُتب على تلك القطعة بخط رديء لكن مفهوم، لأوّل مرة يكتب صاحبه الإنجليزية HUMANHE وهي تمثّل بداية سطر من سطور الاحتمالات التي فكَّ شفرتها. كانَ السطر المُمزق يُعبّر عن جملة لو جُمّعتْ هذه القطعة مع القطعتين المكملتين المتطايرتين، وامتلكتْ من الإنجليزية أقل حظ لقسّمتها ثم قرأتَ: HUMAN HERE HELP.

لم يعلم أنَّ هناك بشرًا حيث بحثَ هو وأبوه وجدّه، بشرًا صعدوا إلى القمر قبل اندثار الحضارة ولم يستطيعوا العودة. بعد انقطاع الإمدادات عنهم، عاشوا حياة بائسة هناك في قاعدة قمرية، لكنها حياة. تزوجوا وأنجبوا، واستطاعوا النجاة كل تلك الفترة ببعض موارد القمر.

حاولوا طوال قرون التواصل مع الأرض بطرق كثيرة ولم يفلحوا، فلم يعد لدى البشر ما

يمكنهم من استقبال إشاراتهم، ولم تسمح لهم مواردهم بصناعة ما يُمكنهم من العودة إلى الأرض، حتى جاء مشروع الومضات الأوّل، فقد طوّروا تقنية تسمح لهم بتحرير بعض الغازات من باطن القمر في عدة أماكن مختلفة، وهذه الغازات هي سبب الوميض الأحمر الذي يظهر من الأرض.

لم يظنّوا أن البشر على الأرض انحطّ بهم الحال إلى تلك الدرجة، حتى إنّهم لم يستطيعوا فهم تلك الرسالة الأولى المُكوّنة من مائة وثلاث ومضات، فلم تأتِ المساعدة.

مرت عقود، وأحيَوا المشروع من جديد، ولكنّه أبسط من السابق، إذ كانت الومضات أقل، ومضات تعبر عن ثلاث كلمات HUMAN HERE HELP.

مرت شهور منذ إرسال آخر ومضة إلى الأرض، ويبدو أن النتيجة واحدة، لن تأتي مساعدة. عمومًا لا ضير أن يتأخر البشر شهورًا أو سنواتٍ أو قرونًا، فقد ماتَ آخر بشري على القمر فعلًا، لفَظَ أنفاسه الأخيرة وأغمضَ عينيه وهو ينظر إلى الكرة الزرقاء البعيدة من الجانب القريب من القمر، وفي نفس اللحظات سارَ بشري آخر على الأرض، عائدًا إلى منزله قبل الفجر بدقائق، وماضيه المثقل بالحلم يتبعثر خلفه.

رُباعي

بدأت العلاقة الغريبة بين البشر والنظام النجمي الرباعي HD98800 منذ زمن بعيد، عندما اكتُشف أنه أوّل نظام نجمي يتعامد فيه القرص الكوكبي المُحيط بالنجمين المركزيين (Ba وBb) على مُستوى دوران كلاهما حول الآخر، وليس في نفس مستواه، مثل باقي الأنظمة الرباعية المُكتشفة.

خارج القرص الكوكبي يدور نجمان آخران (Aa وAb) كلاهما حول الآخر، ويدوران حول النظّام المركزي المكوّن من زوج نجمي وقرص كوكبي. جذبَ هذا بعض الاهتمام إلى النّظام النجمي المُكوّن من أربعة نجوم، بسبب ذلك البناء غير المألوف، وقرصه الغباري الذي يُعدّ من أصغر الأقراص المعروفة، ويحمل نفس «بصمات» الأقراص الغبارية حول النجوم المنفردة، ما يرفع احتمالية وجود كواكب في ذلك النظام بنسبة تزيد على ٢٠ في المائة.

في ثلاثينيّات القرن الحادي والعشرين، نُشرت عدة أبحاث حول العالم تُشير إلى أن المسافة بين الزوج النجمي المركزي والقرص الكوكبي، والتي تبدو لنا مسافة خالية من الغبار، يدور بها كوكب ذو حجم أكبر من نصف حجم الأرض بقليل، في مدار مُستقر يبعد عن الزوج النجمي المركزي بمسافة تتراوح حول ١.٥ من المسافة بين الأرض والشمس. بل وهذا الكوكب نفسه هو ما سبّب ذلك الفضاء الدائري حول الزوج المركزي من النجوم بسبب جاذبيته التي تُنظّف مداره حول الزوج المركزي من غبار القرص الكوكبي.

بعدها بسنوات قليلة، رصدت التلسكوبات حول الأرض والقمر أنّ تلك الحلقة الفارغة بين النجمين المركزيين والقرص الكوكبي بدأت تمتلئ بالغبار، أو بكلمات أخرى، امتدّ القرص الكوكبي حول النجمين إلى الداخل، فبعد أن كان عرضه أقل بقليل من ٣ وحدات فضائية، زادَ على ٤.١ وحدة فضائية، مع عدم ملاحظة أيّ تغيير في مدار أو ميل دوران النجمين المركزيين أو النجمين الخارجيين.

كان التفسير الأصوب حينها أن الكوكب ذاته قد اختفى بصورة ما، ربّما دُمّر فتلاشت الجاذبية التي حافظت على خلاء الحلقة حول النجمين المركزيين من الغبار.

في عام ٢٠٣٩ نشرَ عبد السلام أمين ونادر هلال من مصر بحثًا استقيا بياناته من مرصد ألماALMA Observatory، يفيدُ أنّ الحلقة الغبارية انكمشت من الداخل إلى الخارج، وعادت إلى طبيعتها من جديد، وكان السؤال المطروح حينها: هل الافتراض الأوّلي بشأن دمار الكوكب افتراض خاطئ؟ وإذا كان الأمر كذلك، ما الذي جعل الفراغ يتلاشى من البداية؟

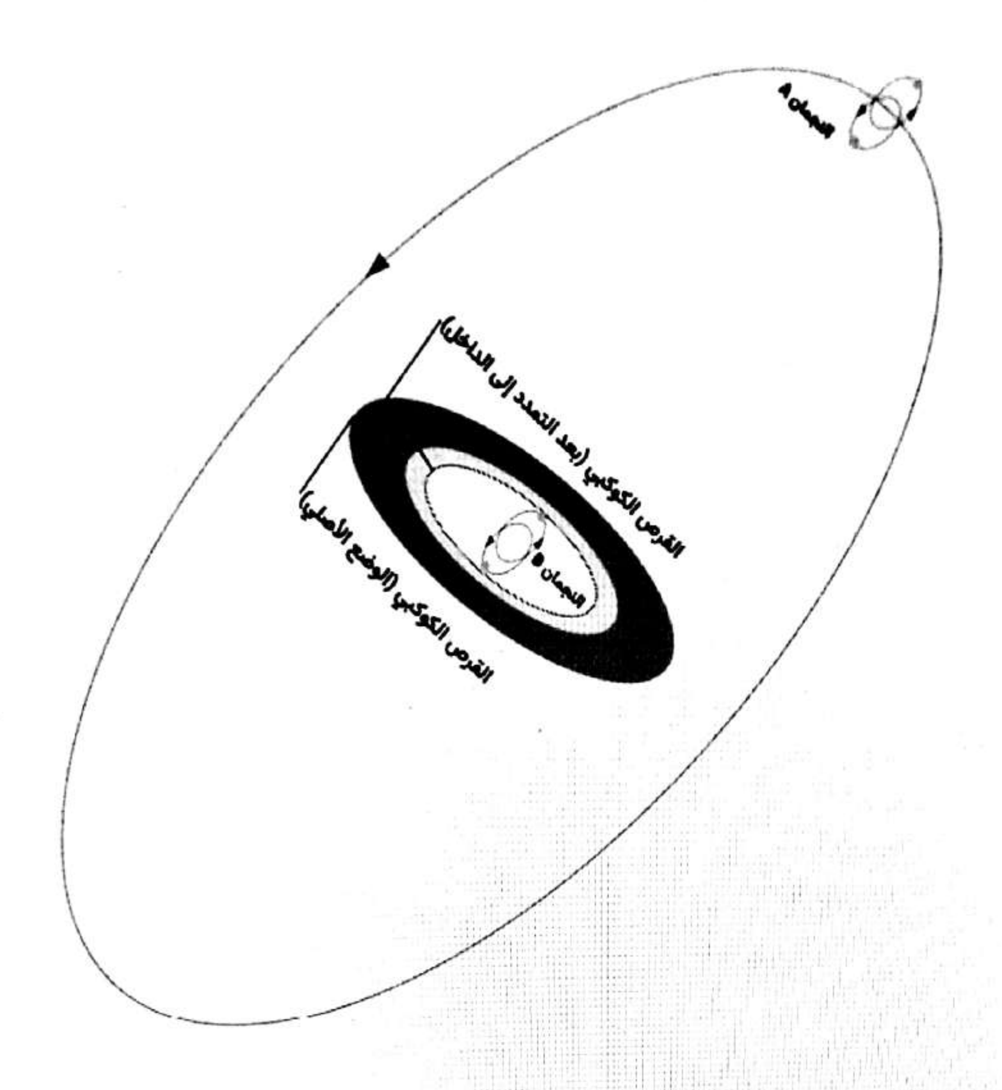
بعدها بسبع سنوات، اتَّسع مدى الحلقة الغبارية من جديد، فبدا حينها أنَّ فرضية الكوكب الذي يمسح مداره من الغبار فرضية مُهترئة تمامًا، فأيّ كوكب ذلك الذي يظهر ويختفي هكذا.

مرّت السنون، وبدا أنَّ النظام النجمي يتبع نمطًا مُعينًا في تمدد وانكماش حلقة الغبار حول النجمين المركزيين، فتتمدد الحلقات وتنكمش كل فترة زمنية تُقدر بـ ٦.٨ إلى ٧.٤ سنة أرضية تقريبًا بنفس المقدار. وأُثير حينها نقاش هائل، حول ما إذا كان هذا هو سلوك النظام النجمي منذ نشأته قبل نحو ٨ مليار عام، وبسبب قصور المعدات التي يمتلكها البشر لم يكتشفوا ذلك إلا مؤخرًا، أو أنه بدأ يتّبع هذا النمط مؤخرًا فقط، وإن كان الرأي الثاني هو الأرجح في الأوساط العلمية.

مع استمرار ظهور النمط حتى بدايات القرن الثاني والعشرين، ظهرَ أكثر الافتراضات جرأة من قِبل الروسي ألكسندر ليونيد، أنَّ التفسير الوحيد هو وجود حياة عاقلة في مكان ما في ذلك النظام النجمي تطوّرت تطوُّرًا يسمح لها بتطويع جاذبية النظام النجمي، أو تخليق مجالات جذبوية محلّية بالقيم التي يريدونها. مع الحفاظ على استقرار النظام النجمي كليًا.

ظلَّ هذا الافتراض حبيس الوسط العلمي من دون دعم يُذكر حتى أُعيد اكتشاف الكوكب من جديد، وهذه المرّة تأكّد وجود الكوكب -مع تابع قمري صغير- في أثناء الفترة التي يتمدد خلالها القرص الكوكبي حول النجمين المركزيين، أي أنَّ الكوكب ذاته موجود حتى مع امتداد الحلقة الغبارية ووجوده داخلها، وهنا انفجرت شهرة ليونيد، وأضحى اسمه مُقترنًا باسم النظام النجمي، فصارَ اسمه «نظام ليونيد الرُّباعي» Leonid Quadruple Star System.

**



هبطا على الكوكب، كوكب ليونيد، توقّعا أكثر من كوكب صخري درجة حرارة سطحه تزيد على مائتي درجة مئويّة. حضارة تتحكّم في نظام نجمي، لا بدّ أن تترك شيئًا ما في مكانٍ ما، إن لم تترك بصماتها على كامل سطح الكوكب.

لكن من اللحظة الأولى على الكوكب، بدت لهما سماء الكوكب أغرب من أرضه.

تراءت لهما الشمسان في السماء وكأنّهما عينان تراقبان هذين الغريبين. لونهما مائل إلى البرتقالي، فكلاهما أخفُّ كتلة من شمس الأرض وأبرد منها، أمّا النجمان الآخران فقد ظهرا في السماء مجرّد نقطتين مضيئتين، ولم يختلفا كثيرًا عن ملايين النجوم التي اعتادا أن يرياها في سماء الأرض. ويُرافقهما في أسفارهما على سطح الكوكب حلقة لامعة تشق السّماء من أسفل الأفق وتمتد فوق رأسيهما إلى الأفق المقابل، وهي الحلقة الغبارية التي جاءت بهما إلى هنا في المقام الأوّل.

سنتانِ من البحث عن تلك الحضارة التي تتحكّم في نظام نجمي، لكنّهما لم يجدا حياة أو أي شيء دلّ على وجودها يومًا ما.

أقَطَعا تلك المسافة الشاسعة للا شيء؟ ١٤٦ سنة ضوئية، فُنيت أجيال على الأرض وهما

يقطعانها نائمين مجمّدين، حتى إنّ الرائدين كليهما لا يدريان إن كانت الأرض تتذكّر أن اثنين من أبنائها خرجا مُتجهين إلى ذلك النظام الرباعي، بعد أن صارَ وجود حياة على سطح كوكب ليونيد عقيدة بين أهل الأرض، وأضحى الكوكب خلاصهم المأمول بعد أن اهترأ مهدهم الأرضي، وصارَ أهشّ من نبات هشيم تذروه الرياح.

لم يجدا من رائحة الحياة إلا ظلالهما المزدوجة بفعل وجود نجمين في السماء، وغلاف جوّي رقيق به من الأكسجين ما لا يزيد على اثنين بالمائة.

يناقش كلاهما: «لكن يستحيل أن يكون ما رصدناه على مدار مئات السنوات من ذلك السلوك الغريب للنظام النجمي الرباعي ناجمًا عن ظاهرة طبيعية».

بنهاية السنة الثانية التقطت أجهزتهما تغيّرات في قيم الاستضاءة للنجمين الأقرب إليهما. تغيرات طفيفة لكنّها ملحوظة، فقلّ بمقدار يتراوح حول ٠.٠٣ وحدة استضاءة شمسية، واستمرّ التغيّر ارتفاعًا وانخفاضًا بتلك القيمة لكن ليس على مسافات زمنية مُتساوية، وإن تراوحت جميعها بين شهر وأربعة شهور. لم يستغربا الارتفاع في قيم الاستضاءة، فحتى شمس الأرض قد زادت استضاءتُها منذ نشأتها إلى الآن، وسيتغير في المُستقبل، لكن أن يقلّ من جديد وعلى تلك الفترات الصغيرة، من المستحيل أن يحدث الأمر طبيعيًا.

مرّت سنتان أخريان جمعا فيها كل ما استطاعا من بيانات حول النجمين، واستمرّ التغير في الاستضاءة على نفس شاكلته، إلى أن اقترح أحدهما أن تلك القيم ربما هي مُحاولة للتواصل من تلك الحضارة التي جاءا بحثًا عنها في الأساس، وحضارة بذلك التقدّم لن يصعب عليها إخفاء كوكبها، إن سكنوا كوكبًا آخر في ذلك النظام النجمي.

طوّرا برنامجًا لتحليل قيم الاستضاءة منذ أن اكتشفا تغيّرها لكلا النجمين، مع الفترات التي تتغيّر خلالها. والغرض منه أن يبحث عن نمط ما داخل تلك الأرقام يستطيع أن يُفسَّر بوصفه إشارة إلى شيء ما أمدّاه بالبيانات السابقة لقيم الاستضاءة، وأضحى يأخذ القيم مُباشرة من حسّاسات الاستضاءة، ويعالجها من دون تدخّل منهما.

مرّت سنة أخرى من جمع البيانات وتحليلها، وفي صبيحة اليوم العاشر من الشهر الثاني من السنة السادسة في رحلتهما، سمعا صوت التنبيه قادمًا من برنامج التحليل الذي طوّراه. هرولا إليه، فوجداه قد أخرجَ لهما نمطًا مُتكررًا من عدة أرقام يبدو أنّها إحداثيّات مكان ما على الكوكب.

إذن، ربما كانا على حق بوجود إشارة بين ركام الأرقام المُرسلة من النجمين عبر شدة

الاستضاءة، ربما لم يُخطئ ليونيد بعد كل شيء بشأن وجود وعي ما في هذا النظام النجمي.

لكن بدا أن هناك مُشكلة ما عندما تأكّدا أن المكان الذي تُشير إليه الإحداثيات كان من ضمن الأماكن التي استكشفاها بالفعل. راجعا سجلات الاستكشاف فلم يجدا شيئًا غريبًا سجّلاه بخصوصه سوى أنّه أخفض قليلًا عن الأرض حوله، فهو يمثل دائرة ليست منتظمة أكبر قطر لها أقل من كيلومتر واحد.

نزلا من العربة في النقطة التي أشارَ إليها الإحداثي تمامًا، أخذا يتجوّلان على السطح الصخري للكوكب ماسِحَين النقطة وما حولها سيرًا على الأقدام، لم يرَ أيٌّ منهما أيَّ شيء شاذ، فعادا إلى العربة من جديد بعد سبع ساعات من البحث المضني.

من كابينة العربة، نظرَ كلاهما تلقائيًا إلى النجم المرتفع في السماء، إذ لم يُشرق الآخر بعدُ، وكأنّما يسألانه عمّا يحدث هنا، أين الوعي وأين الحضارة؟

بدأ النجم الآخر يرتفع ليُجاور أخاهُ، وتكتمل صورة الوحش الفضائي الذي ينظر إليهما من السماء. لم يمضِ وقت طويل حتى أدركا تأثير وجود النجمين معًا عليهما في هذا المكان تحديدًا. انطفأت أضواء الكابينة تلقائيًا، ثم انطفأت كل شاشات المُراقبة، والحواسيب على متنها. كلُّ هذا في غضون دقيقة منذ أن استقرَّ النجم الآخر بجوار أخيه. حاولا أن يستعيدا السيطرةِ على العربة لكن لم تنجح أيٌّ من مساعيهما، عوضًا عن ذلك بدا أنّهما فقدا نوعًا آخر أكثر أهمّية من السيطرة، السيطرة على جسديهما... بدأت الأيادي ترتعش، ربما لأنَّ إمداد الأكسجين داخل المركبة يقلّ، وبدأ الصداع يهتك بخلايا المُخ. تسارعت الأنفاس، وثَقُلَ جسداهما. نعم! إنّه الأكسجين.

هبطَ الظلام عليهما تدريجيًا، وبدأ شعور بالخفة يتسلل إليهما، لم يعودا يتنفّسان بسرعة وتلاشى الصّداع تمامًا. في الحقيقة، لم يشعرا بأي أعضاء حيوية تقيّد وُجودهما. لا بد أنّهما ماتا، لكن، أبتلك السرعة؟

اتّصلَ وعياهما فاندمجا في هذا الظلام اندماجًا لا صورة له، بل أحسَّ كلاهما بوجود الآخر في مكان ما هناك. بدأت النجوم تثقب ذلك الرداء الأسود الذي يُغلّفهما، فظهرت نقاط مُضيئة هنا وهناك. وأدركَ كلاهما أنّهما انتزعا من داخل نظام ليونيد الرباعي إلى خارجه، عندما رأيَا نقطة مُضيئة، عرفا أنّها النظام كله، وهو المشهد الذي لم يرياه في رحلتهما إلى النظام لأنّهما كانا نائمين، فاقتربا منه ببطء في البداية ثم ازدادت السرعة تدريجيًا. بدأت الملامح تتضح، فانفصلت النقطة إلى نجمين ثم أربعة. وهنا وقفا على أعتاب النظام، ينظران إلى الحلقة

الغبارية تتمدد وتتقلص في دورات لا تتعدى ثواني، بدلًا من الدورات التي استمرت سنوات.

وسط كل ذلك شعرا أنّ لهما تحكمًا ما في السرعة التي تدور بها عجلة الزمن، أو السرعة التي يسيران بها هنا وهناك، لكنهما تركا الأمور على سجيتها وشريط الزمان يدور على هواه.

بدأتْ تخرجُ من النجوم الأربع أشعة مُركزة غريبة، كأنها شعاع ليزر أحمر، يخرج من كل نجم شعاعان، أحدهما إلى النجم المُجاور له والآخر إلى نجم من النجمين البعيدين، فتكوّن شكل رباعي هائل، أضلاعه مئات الملايين من الكيلومترات. تغيّرت زوايا الشكل الرباعي وتقاطعت أضلاعهُ مع حركة دوران كل نجم حول الآخر، ودوران الزوج الخارجي حول الزوج الداخلي. بدا المنظر وكأنّه مُحاكاة في برنامج حاسوبي، أربع نقاط وأربعة أضلاع على خلفية سوداء مرصّعة بالنجوم.

«لا بد أنّ تواصلًا ما بين أربعتهم يحدث في تلك الأثناء»، كانت تلك الفكرة تُساق إلى عقليهما، «لكن أي حضارة تلك التي تسكن نجومًا؟».

اقتربا من النجمين المركزيين فبدأ الكوكب الصخري يظهر مع تابعه الصغير، وظهرت تضاريسه عندما اقتربا منه اقترابًا يسمح لهما بإلقاء نظرة كلّية مع دورانه حول النجمين وحول نفسه، فقد دارا معه حول النجمين المركزيين في دورات ذوات أزمنة لا يُقدّرانها بالضبط، لكنّها بالتأكيد أقل من ثلاث سنوات، زمن دوران الكوكب حول النجمين في الواقع.

اعترتهما رهبة عندما وصل أوّل مذنّب، وضربَ سطح الكوكب، ثم تبعته مذنّبات أخرى وأخرى، بدأت جيولوجية السطح تتغيّر، والأنهار تجري، والأخضر ينتشر انتشار ملايين من النمل خرجوا من مساكنهم وتفرّقوا. هل كانت الحضارة هنا يومًا ما في الماضي؟ أم ستكون في المُستقبل؟ أين هما إذن في تلك المُحاكاة الكونية؟

ما زالت الخطوط التي تربط النّجوم تظهر لهما ولكن من منظور مختلف، لا يُريهما كامل الشكل الرّباعي بزواياه المتغيّرة.

تُساق الأفكار إلى وعيهما من جديد، أربعة نجوم متّصلة، وحياة تنبت على الكوكب، لا حضارة هناك ولا أحياءَ واعين: «ألم تفهما بعد؟ ألم تُدركا أن الوعي قد لا يُحمل على لحم ودم ومخ بخلاياه العصبية، ألم تبالغوا عندما اعتقدتما أنّ مُخّكُم هو أعقد مُكوّنات الكون قاطبة؟».

لو امتلكا جَسَدَيْن لارتعشا عندما تدفقت إليهما تلك الفكرة المدفوعة دفعًا: «لستُ حضارة كحضارتكم، لكن وعي واحد أكبر جسامة، تحمله أربعة نجوم، عقل أعقد من عقلكم، وأعقد من

أي عقل في الكون، يصنع لكم جلة، بعد أن احتالت جنتكم الأولى جحيمًا».

**

عندما وصلت الرسالة إلى الأرض، كان قد مرّ على الرحلة التي قصدت كوكبة الشجاع ونظامه النجمي الغريب ٥١٧ عامًا. زمن طويل لم يبقَ فيه من البشر على الأرض إلا أطلالهم.

لذلك لم يستقبلها أحد.

---

(1) «نداء في البرية» رواية للكاتب الأمريكي جاك لندن، نشرت عام 1903

(2) نسبة إلى إيليا، مدينة إغريقية قديمة، تقع الآن على الساحل الجنوبي لإيطاليا.

(3) فيرنر هازنبرج (1901-1976) Werner Heisenberg، ألماني، حاصل على جائزة نوبل في الفيزياء، صاحب مبدأ عدم التأكد Uncertainty principle.

(4) Convergent series

(5) Divergent series

(6) فرانز سيرافين إكسنر (1849-1926) Franz Serafin Exner فيزيائي نمساوي تتلمذ شرودنجر على يديه.

(7) فريدريك هايزنبور (1874-1915) Friedrich Hasenohrl فيزيائي نمساوي من أساتذة شرودنجر أيضًا.

(8) فريدريك أوجست كيكوله (1929-1896) Friedrich August Kekulé، وهو مكتشف بنية البنزين الحلقية، وقد ذكر أنه حلم بالتركيب الحلقي للبنزين عندما رأى ثعبانًا في منامه: «تستطيع الآن رؤية التراكيب الأكبر في أشكال مختلفة؛ صفوف كبيرة في بعض الأحيان مرتبطة معًا على نحو أكثر تقاربًا، وكلها تتزاوج وتلف في حركة تشبه حركة الثعبان. انظر! ما هذا؟ أحد الثعابين قد أمسك بذيله، والشكل تراقص ساخرًا أمام عيني. واستيقظت كما لو أن ذلك حدث بفعل ومضة من البرق».